الجندب يلهو حُرًا في شوارع القاهرة!

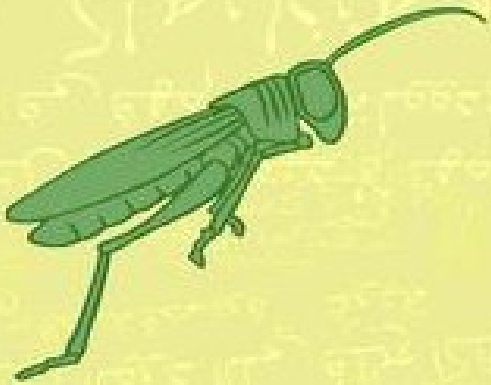

مينا ناجي

قصص

الأعمال الكاملة

t.me/kotbhm

الجُندَبُ يلَهُو حُرًّا

في شوارعِ القاهرة!

قصص

مينا ناجي

إلي يارا:

أنا إلى فرنسا .. أنتِ إلى الأرجنتين ..

إلي زكريا:

يومًا ما سيصاحبُكَ الجُندَب ..

قصةً قصيرَة

النَّقيض!

هل هذا ما أسرني؟.. ابتسامها الدَّائم؟ عادةً، الدحَّاحون الأوائل يكونون عصبيين؛ لأنَّ الدراسة قاسية ومُنهِكة في جامعتنا؛ تعمل ليل نهار في هدوء وانضباط. من أين أتيت بهذا السواء؟!

لا أقدر أن أقول له. سيقول: من الواضح إنك غاوي تتعب نفسك، أو: بتحب الحاجة المستحيلة، أو يقول لي: ينعل أبو شكلك!

* * *

لم تلفت انتباهي، وأنا أرتدي وحدتي مرَّةً أخرى، بعد انتهاء عَلاقتي العاطفيَّة الأولى، كحذاءٍ قديمٍ مليء بالثقوب. فتاة عادية تلبس ألوانًا سادة، وتعقص شعرها بـ"توكة" بسيطة كذيل حصان. تشمِّر عن ذراعيها، فتبدو أقرب إلى الأولاد. امتزج اهتمامي بصفاءِ عينيها وتضادِّ الأبيض فيهما مع لون بشرتها

السمراء، بنفوري العام منها بسبب انغماسها في الدراسة بكليَّتها كهولاء الذين يكرِّسون جُلَّ وقتهم في العمل.

في بداية العام الدِّراسي الجديد، رأيتُها وقد غطَّتْ رأسَها وكبرت ملامحها، لتصبح أقرب إلى امرأةٍ يافعةٍ جميلةٍ منها إلى صبيَّة. أصابها هذا الهدوءُ الذي يصيب من يكبر، ويسمونه "رصانة"؛ مساعدة بسيطة منها دون سابق معرفة بيننا جعلتني اتعلق بها. عندما تضحك، تُغلق عينيها، وترجعُ للوراء فترفع رأسها كأنها في حلم أو نشوة، ثم تنظر إلى أسفل مثل طفلة قامت لتوِّها بشيءٍ خارج حدود المتعارف عليه. جسدُها متناسق كجسدِ أنثى معتزٍّ بنفسه، رغم عدم اهتمامها الواضح به. هناك شيء ما في مشيتها يشدني رغم أنها تمشي كالأولاد. فمها واسع، وشفاهها مكتنزة شهيَّة. أحيانًا تمشي في تؤدة مثل النساء الناضجات اللاتي يدللن بأنوثتهن؛ تتمايل وتتمرجح – دون أن يلحظ أحدٌ – من غرفةٍ إلى غرفةٍ تُلقَّي فيها المحاضرات. حركة أخرى تثيرني، عندما تلعب بخصل شعرها من تحت حجابها حين أكلمها. ملخَّص الأمر، في غمرة وحدتي الأليمة، أحببتها فورًا. صُدِمتُ لحظتها باستحالة مصارحتها؛ ليس بسببٍ اجتماعيٍّ

كمرَّتي السابقة، بل بسببها هي أيضًا، بالذات. كل ما فعلتْه هو أنها وقفتْ تنظِّف بنطالها من الغبار الخيالي الآتي من التَّعب، بعد جلوس طويل، واتَّجهتْ كأنها ستخرج من الباب المفتوح، لكنها -لسبب لا يعلمه إلَّا الله- توقفَتْ. مَيلُ جسدِها للجانب كشف عن استدارة كتفها. تتمطع في طفولة، كقطٍّ جميلٍ أسمر يُجرِّب تطويل جسدِه. كأني دخلتُ مجالًا مغناطيسيًّا. أوردتي تدفق الدم إلى وجهي بشدة، وعيناي مثبتتان عليها. رفعتْ عينها لتنشب في عيني.

* * *

حين أسلِّم عليها، وأصافح كفها، خلال فترة طويلة يوميَّة من الحرمان منها وهي أمامي، كأني أضاجعها. أنزلق بخفةٍ على يديها لأمرِّرَ إبهامي بين أصابعها، ثم أقبض فجأة، وبعنف أعتصرها. تلين هي في استسلامٍ منتظرة، أو مستمتعة، تاركةً كفَّها الكبيرةَ داخل كفي. كان مجرد سلامي عليها يسبب لي حنينًا مرعبًا وهياجًا مؤلمًا أؤجله حتى أرجع إلى البيت. كنت مستعدًّا لدفع أي ثمن لتشاركني فراشي.

يوميًّا كنت أنتظر، في خيالاتِ ما قبل النوم المتوهَّمة، أن تخطئ الطريق إلى غرفتي، كأن تدخل من ممرٍّ داخل منزلها لتجد نفسها فجأة قبالتي داخل غرفتي؛ وكل يوم أبدأ مشوار تهدئة روعها وإقناعها أن تشاركني ليلتي. الأمر الذي ينتهي كلَّ يوم بالاقتناع الخَجِل، والسائل الأبيض السَّاخن على يدي وفخذي.

* * *

دخلتُ لألقِيَ سلامي عليه. أغلقَ بابَ المكتب وبدأ: قل لي، بصراحة، ولا تكذب من فضلك، هل أبدو غريب الأطوار هذه الأيام؟! الغريب أنه شخص غريب الأطوار دومًا، مصدر ذلك ربما إصراره إنه يعرف كل شيء عن كل شيء، ومحاولته طوال الوقت البرهنة علي هذا. لكني لم أقل له ذلك، نفيتُ وقلتُ أنه يبدو فقط متضايقًا بعض الشيء. كان يمرُّ بفشل تجربة عاطفية، وهو من النوع الذي لا يقدر أن يتعامل مع ألمه .. "مش طايق أبُصّ في وشّ أي نتاية" .. ربَّتُّ على كتفه، وعرضْتُ عليه أن أعزمه على مشروبٍ في كافتريا الجامعة. رفض. تركتُه وهو

يسمع أغنية لـ"عمرو دياب" للمرَّة الألف، وهو يمصمص ويتحسَّر، داسًّا وجهَه بين يديه.

* * *

بعثت لها أشعارًا وقصصًا فرَّغتُ فيها خيالاتي ولوعتي. ردُّها كان عبارة عن سطرٍ قصيرٍ يقول أنني أجيد التعبير عن نفسي، وأنني أستحق أن أجدَ مَن أحبُّها وتحبُّني. شعوري بعدم القدرة على الوصول إليها جعلني أتعلق بها أكثر؛ من الجائز أن يكون احتياجي لها احتياجًا للبراءة، للبدء من جديد، للَمسةِ أنثى تدخل عالمي الذي تركه من أحببتُهم فارغًا. سعيٌ وقِحٌ لإيجاد معنى لمرحلة من حياتي لا معنى لها. سمراءُ لأفضلها على كلِّ البيض اللاتي أعرفهن.

قال لي: أن تُهْوسَ بشخصٍ، يرجع إلى سببٍ نرجسيٍّ، أن تحبَّه كتضخيم –أو تجسيد– لصفاتٍ لك تراه يعكسها منك، أو كتكملةٍ لما تحتاجه ذاتُك، لما تريده "أناك" أن تكون. صحيح، عندما كنت أراها العام الماضي، كنت أشعر بالخجل من نفسي وأطرق رأسي .. أنثى مسترجلة؟ هل هذا ما أحتاجه؟! أحيانًا

أشعر أن هؤلاء المتفوقين لم يسمعوا بعد عن اختراع الموت. لماذا يعمل الإنسان بهذا الكد والإخلاص، وهو في النهاية سيموت؟! سؤال حيَّرني كلما وجدتُ أحدًا "يفنِي" نفسَه للتفوق. دائمًا أمام أبواب المعيدين والدكاترة تحل الواجبات الطويلة — التي تُنقل عادة بالحاف الأزرق أو الأسود قُبَيلَ ميعاد التسليم بدقائق- بقلم رصاص في صبر واستفاضة، وورقها ينشع مِلحَ عرق كدحها.

* * *

كما في الحلم، في يوم ما – دون سبب واضح – تعاملَتْ معي كأننا في عَلاقة، تتكلم كما يتكلم الأطفال الصغار بتكسير للحروف ولويها على اللسان — كنوع من الدلع- والوقوف في انتظار أن أقول لها شيئًا. لم أعرف كيف أتكلم عن أي شيء، اكتشفتُ لحظتها أني لا أعرف عنها شيئًا، وربما لا يوجد شيءٌ مشتركٌ بيننا!

بعد هذه الساعة السحرية، المليئة بالجمل المكررة من ناحيتي، والحروف المكسرة الملويَّة من ناحيتها، تكلمتُ عن الموضوع الذي من الممكن أن أتكلم عنه .. الحب بين المختلفين

دينيًّا: حاولَتْ أن تتلمَّسَ من بعيدٍ ردَّةَ فعلي بالنسبة لتغيير ديني، فبيَّنتُ لها أن هذا الأمر ليس في حساباتي. استفاقت، ورَجَعَتْ إلى سابق رصانتها، لتقول إننا يجب ألَّا نكلم بعضنا حتى لا ننجرف، معلنةً أنَّ ما نفعله حرام، على الأقل بالنسبة لها، أو بالأدقِّ بالنسبة لدينها. أنا غضبتُ بشدَّة، متغاضيًا عن كلِّ الموانع الدينية، أن هنالك مجتمعًا يرى في الحب شيئًا حرامًا، أو شيئًا يستحق الشعورَ بالذنب بسببه.

* * *

بعثَتْ الجامعة لي رسالةً إلكترونيةً تحذيريةً على بريدي الجامعي، تعلن بوضوح أنه "*ممنوع الاختلاط بين الأديان عزيزي الطالب فلان الفلاني، من أجل ا لأعلى مستوى تعليمي وخدمي، ونظرًا لحرصنا على سلامة الطلبة ونظام المكان*" وأضافت " *وللتعدي السافر على قوانين الجامعة بمكوثها في مخيلتك طوال أيام الأسبوع على مدار السَّاعة، تقرر فصلك لمدة أسبوع ابتداءً من الغد مع عدم السماح لك بالتعامل مع الإناث لآخر العام*".

* * *

سمراء تحت الشمس. نصائح أخوية. قلبي مضرجٌ في دمائه. ألمٌ على إيقاعات ترنسندالية .. هذا ما تداعى في رأسي وأنا في طريقي إلى البيت. شرحتْ لي، في نهاية العام – يوم جلسة تصوير دفعات التخرج – حزنَها، لكونها لا تستطيع أن تجد الوليف الذي يوجد في حياة صديقاتِها. كأنها مصارَحَة وداع. كانت غاضبة لأنها لا تجد شريكًا عاطفيًّا "مناسبًا"، أو بالأصح في هذه الحالة "مسموحًا". احتجَّتْ بأن كلَّ الشباب يريدون البنت المرحة اللعوب. ثم أضافت في ضَيْقٍ ومرارةٍ: *جميع الأولاد أطفالٌ صغار*. لو قلتُ لها إن من تقف أمامه لا يتعدَّى الأربعة الأعوام هل ستتركني وترحل؟ أليست هي دائمًا في رحيلٍ عني، دون أن تكون قد وصلت أبدًا؟! أليس هذا بالضبط سبب اشتهائي لها؟ يشوع بن نون أوقف الشَّمسَ مُدَّة نصف ساعة، هل أقدر أنا على حجبها لدقائق قليلة من أجل ألَّا تتألم عيونها الصغيرة؟ وأنا أتكلم، أدركتُ أنني آخذها من يدها لأوصلها لطريقٍ ينتهي بأحدٍ غَيْري. تألَّمْتُ، "*ما علينا*". كررتُها، وأشحتُ بيدي. *ما بك؟ لديك وجهة نظر!* حاولتُ أن أشرح موقفي. لم

تخرج الكلمات. إنني لا أفهم موقفي نفسي. تعودت على صوتِها – رغم ضَيْقي من سرسعته في البداية – أصبح في أذني كجرسِ بيت. كيف سأعيش الآن دون أن أسمعه؟ لو تدري حجم أهوائي.

* * *

لا تسألني لماذا أنظر لأي محجبة بتلك الطريقة. هذه الأسئلة لا تُطرح، بالذات أمام شخصٍ لا يطيق النظرَ في وجهِ أي نتاية، وآخر ممنوع من التعامل معهم.

أفكارٌ داخل رأس تلميذ لا تُهم أحدًا

(إلا كخطأ في فهم جملةٍ لوودي آلان)

الكل يعلم هذا .. إذا اقتربتَ من عادل سيقطعك إربًا .. ابتعِدْ عن محمود الهادئ وإلَّا فسيبكي ويضربك بأي شيء يجيء في مجال يدِه .. لا تتكلم حين يمر أحدٌ على باب الفصل .. لكن ماذا لو فقط كان هذا الفتى السمين في الديسك الثالث موجودًا فعلًا؟ ماذا لو لا أرى هذا الحوت الوردي يسبح أمام النافذة؟ الطبشورة أكبر من هذا العالم! ما هو الواقع؟ ومَن يتصرف في الفيلم السينمائي؟ البطل أم الشخصية؟ نَسِيتُ الواجب مرة أخرى! اللعنة! عشر ضربات على اليد .. سيمر هذا سريعًا، لكن عليَّ أن أقفز معترفًا حتى أكون أولَ المضروبين .. المستر يمشي بترتيب الصفوف ليعذِّبَني .. هذا الفتى السمين .. لو توقف عن الضحك سخريةً لحظة، كنتُ استطعت أن أفكر في حلِّ هذه المعضلة! .. هاهم العشرة، وإضافة لهم خمسة حروق آخرون .. الوقع ليس في نزول العصا على الكف، بل في ارتفاعها .. والمؤلم أكثر هو التوقف عن الضرب انتظارًا للمزيد .. وقت مستقطع لتوجيهِ الكلام .. هذا الكلام الذي لا يُسمع سوى حروف مضغومة منه .. التفكير كله ينحصر في الألم .. الألم فقط .. وهذا الطفل الممتلئ الذي لم يعد يضحك الآن،

بل أصبح شكله يثير الشفقة والقرف بعلامات الاحمرار والتقلص البادية على وجهه .. الفصل بحجم الواقع! ما هو الوقت؟ هل العَيْش في الخيال يجعل منه واقعًا؟ والأدهى .. أيجعل هذا من الواقع خيالًا؟ ليختفِ المدرس والمسطرة والألم. في عام ١٩٣٩ غزا الجيش الألماني شرق أوروبا، واحتلَّ غرب بولندا تمهيدًا لإسقاطها .. تمثال العذراء يسقط على الأرض .. أي تجديف عظيم هذا!! .. في عام ٢٣ في حي شهير بالقاهرة، تقدَّم الشاب ذو الحادية والعشرين بطربوشه وشاربه الرفيع للزواج من ابنة موظف الدرجة الخامسة الذي يعمل في مقر حكومي قريب .. دلَّه أولاد الحلال، وربطوا بينهم .. السقف عال بطريقة مبالغ فيها .. الكراسي والكنب معدني مُذهَّب، سيتآكل في المستقبل .. تلك إحدى مآثر الحملة الفرنسية في دمياط .. حاصل فقط على التوجيهية .. يعمل ويتزوَّج بتوجيهية!! أي شعور رائع أن تكون رجلًا بالغًا بشاربٍ مسؤولًا عن نفسك، وتذهب للزواج، وحاصلًا على توجيهية! تلك البذلة البنية، وجذعك الممشوق الرفيع .. رابطة عنق رخيصة لكن ممتازة .. الكنكة المذهَّبة تلمع في ضوء الشمس الحارق الداخل من فتحات المشربية نصف

المفتوحة .. تلك الفتاة الخَجِلة ذات السبعة عشر عامًا ستصبح جدةً قريبًا مكرمشة الوجه، ولن تستطيع أن تتذكر ماذا تعني كلمة خجل .. هل هذا يجعل منها شابة أم جدة؟ هل هي شابة في هيئة جدة .. أم إنها جدة في هيئة شابة؟ وماذا يصنع هذا مني؟ هل الرُّوح التي تعرف تراب الحسين، وضجيج السَّيِّدة، وبُعد العباسية، وزحمة مصر القديمة، وأصوات وأسماء بائعيها، كانت تمشي مع البارون إمبان عندما داس لأول مرة على تراب قطعة أرض بصحراء مصر الجديدة، وقرر بناء قصره عليها؟ غريب أن يختار البارون هذه المنطقة البعيدة كل البُعد عن كلِّ عمران .. (لكنه قال للباشا أنه يريد الهدوء والبعد عن أي إنسان لكي ينأى بحزنه وابنته) .. هبَّتْ تلك الروح على رداء ابنته الشابة الصغيرة لتداعب فستانها .. إلَّا أن هذه الروح .. ساخرة .. قررتْ أن ترجع في حياة بالقرب من هذه المنطقة؟ أُسقِط في يدها، ووقفتْ ناظرةً إليَّ .. (يو) جرتْ ورائي في الأمطار، تقول بعينيها في شبه ذلٍّ .. لم أكن أنا الوحيد الذي فَعل فِعل الوجود .. (كاماكاوا) أيضًا .. أمَّا كيف جئتُ هنا، وكيف أصبحت في الحادية والعشرين – أي كيف تخطيتُ العشرين – فذلك لا أعرفه ..

لكني أعرف شيئًا واحدًا .. (يو) تحبني وتبكي الآن بعيونها الكبيرة في هذه الرقعة من العالم. ليس عليك سؤالي مثلًا: وكيف أحبَّتْكَ (يو)؟ لأن هذا سيبدو سخيفًا .. لأنه لا أحد يعرف كيف يبتدئ الحُب، مثلما لا يُعرف كيف يسقط العصفور لالتقاط الطعام، أو لماذا لا تفتح المظلة عندما يسقط المطر! على أيَّةِ حال أنا أمشي وهي ورائي تئنُّ بصوت خفيض، ودموعُها الساخنة تختلط بالأنهار الباردة .. ابتدأتُ عملي ككاتبٍ في الوزارة منذ التاسعة عشرة .. عامان لم آلفْ فيهما طعمَ الحياة .. كأنَّ الحياة تختبئ وراء غمامةٍ قماشيةٍ عطنة .. فقط (يو) التي بدَتْ كمظلةٍ حمراء وإنْ كانت بلا طعمٍ أيضًا، كحلم فتى صغير بفيلم شاهده قبل النوم مباشرة .. جسدي! ما بال جسدي؟! (يو) تقف في الوسط كحمامةٍ مكسورةِ الخاطر، ترتجف من البرد أو من الحزن أو الإشفاق .. في هذه النقطة تصورتُ أني نَسِيتُ الكلام .. لا أعرف ما هي الكلمات وما هي المعاني! هل لتلك الأشكال الصَّوتيَّة مدلولٌ في الجسد الذي تخبط فيه؟! شُرُودي في هذا الأمر العميق جعل (يو) تعتقدُ أنِّي أتجاهلها مع أني لا أقصِد .. أنا أقصِد أن أتجاهلَها .. لذلك هي صعبت عليَّ فتركتُها

ومشيتُ، ومازالتْ تمشي ورائي كجرو ماتت أمُّه للتو .. أخذتُ أنهش في لحاء جذع شجرة؛ لأني لا أستطيع أن أعبِّر موسيقيًّا عن مستوى الوعي هذا .. موسيقى تسير في الهواء .. وما نوع تلك الموسيقى؟! هذا السؤال غمَّني كثيرًا .. تعصبتُ وتخيلتُ أن الشمس تضرب في عينيَّ مع أن الدنيا مليئة بالغيوم الرمادية، والجو مكفهر وممطر، فدرتُ إليها، وصفعتُها بشدَّة على وجهها الصغير الذي واجه العالم مدة سبعة عشر عامًا .. نظرتْ واقفة في ذهول لا تعرف ماذا حدث أو ماذا تفعل .. هممتُ بالاعتراض أن هذا لا يصح، ولا يجب أن تنظر تلك النظرة الجانبية حتى لا يتفتت قلبي، لكنَّ جسدَها الصغيرَ الغضَّ أخذ يرتجف بشدة، فصحتُ للسكان بالأدوار العليا أن لا يسحبوا طاقة الكهرباء كلها، وعلى الجميع الاشتراك في مصعدٍ واحدٍ لنؤكِّد ونوضِّح رُوح التعاون، لكن لا أحد أعارني اهتمامًا، فشعرتُ ذاتيًّا – كأني أنظر داخلي- بجنون العظمة وجنون الاضطهاد، وبهذا فاض بي، وقلتُ لمن يجلس على المقهى المكشوف في الشارع: لماذا تضع الكوب في الناحية اليسرى بالذات، والغالب أنك أيمن، وتستخدم يدك اليمنى لالتقاطها ..

رفع نظره نحوي بعد أنْ كان منكبًا في الحديث مع الذي أمامه .. ران صمتٌ طويل .. ارتبكتُ جدًّا، وقلتُ في نفسي إن هذا موقف محرج، ومن الممكن أن يضربني، أو على الأقل يظهر للناس أنني مجنون .. فارتأيت – كعادة هذه الحوادث – أن أقول شيئًا لا عَلاقة له بالحدث تمامًا حتى أحيِّر كاتبَ النص، وأحيِّر الحدث، وأحيِّره، وأحيِّر الحلم إن كنت أحلم، وبهذا أغيظه .. لكن جاء ما أربكني أنا، فقد قال بابتسامة واسعة — وَدِدتُ قتلَه لأجلها: ولماذا لم تستغرب وتسأل لمَ نحن جالسون في مكان مكشوف كهذا في هذا الجو الممطر الشديد مكتفين بمظلة منضدة؟ كأنه كان يريد تهدئتي .. قلت هل أجاريه وأقول إن المياه والريح سوف تدخل الكوب يمينًا كان أو يسارًا متفهمًا برأسي، لكن ذلك سيبدو له استسلامًا! مرَّ وقتٌ، فشعر بانتصاره، ونظر لي أن امشِ، ونظر للذي أمامه .. فتاة جميلة، لكن ليست من طرازي .. قلتُ لن أستسلم خصوصًا أمام هذه الفتاة، لكني قلت لماذا "خصوصًا" أمام هذا الفتاة؟! هل تعجبني تلك المشوهة التي تعاني عقدًا نفسية! (لكن فكرتُ في هذا بسرعة شديدة جدًّا حتى لا يشعر بانتصاره مرة أخرى) .. قلت له: كنا

في المدرسة طوال "وقت الراحة" نقف نلعب – بعد تردُّدٍ يدوم دقائق– تحت الأمطار الشديدة غير مستخدمين أي شيء للوقاية، ونظرت إلى المظلة ساخرًا .. لكنه لم يمهلني فرصة لأتذوق انتصاري وتفوقي عليه؛ فقد احتقن وجهه بشدَّة، وصار شكله مهدِّدًا لسلامتي، وتكلم "انظر يا صبي سوف أضربك"، ووجَّه وجهَه الناحية الأخرى، وهو يقول "أضربك" (ليزيد الأمرَ رعبًا) "ضربًا مبرحًا إن لم تختفِ في ظرف ثوان". نظرتُ إلى الفتاة لأرى ردَّ فعلِها بالنسبةِ لي فوجدتُها باسمة .. تلك العاهرة! .. وهذا كلُّه من أجلها (ليس هذا صحيحًا، لكنني فكرت في هذا بسرعة حتى لا أكون على موضوع ليس له صلة .. هذا عيب! .. كما أنه سيوسعني ضربًا!)، فالتفتُّ، ومشيتُ بسرعة، وسمعتُ الفتاة تقول في إشفاق: "مسكين!"، فنظرتُ إلى الوراء أنظر لها في حنان لأرى كَمْ هي جميلة وطيبة، لكنني وجدتُ نفسي أنظر بخوفٍ إلى الشاب الذي قال لي صارخًا بصوتٍ عالٍ "**اذهب!**"، وبعدها شتمني بلفظٍ قذرٍ عذَّبني طويلًا، وقام، فحجلتُ كأني أجري، ولما ابتعدتُ وشعرت أنني بمأمنٍ، طفق في رأسي سؤالٌ فجأة! هل أنا ألبس عوينات؟! .. من الممكن أن أعرف الإجابة

الآن بسهولة بأن أتحسس ما فوق أنفي، وما حول عينيَّ، أو ما تحت عينيَّ وما حول أنفي، لكن قلتُ أعذِّب نفسي عذابًا لذيذًا، وأدرِّب ذاكرتي في نفس الوقت، وأتذكر شكلي .. أدركتُ بسرعة أنَّ من الصعب جدًّا، بل من المستحيل أن يتذكر المرءُ شكله الذي يلازمه، أو أن ترى وراء عينيك .. قلتُ أتذكر شكلي في الصور .. أخذتُ أتذكر صور الطفولة ذات الألوان الخائبة التي صُوِّرتُها في المدرسة .. الصور الشخصية التي كان يقف فيها أبي خلف الكاميرا مبتسمًا كأنه يفتخر بأنه وُلِدَ له طِفل .. وأدركتُ أيضًا عدم جدوى ذلك؛ لأني لا أعرف إن كنت ألبس عوينات في الطفولة أم لا، فأخرجتُ حافظتي هلعًا، وسحبتُ بطاقتي الشخصية – وسط الأمطار– بسرعة، ونظرتُ، فوجدتني لا أشبهني – ولا أعرف كيف عَرَفتُ ذلك!– بل وأضفت لهذا أنني من الممكن أن أكون قد خلعتُ عويناتي وأنا أتخذ الصورة لأظهر وسيمًا .. همهمتُ في الشارع في صوتٍ من يبدأ البكاء ويتضرَّع: من أنا؟ .. وقف دمي في عروقي، وانتصبتْ كلُّ شعرةٍ في جسدي بعد أن لفظتُ بهذا السؤال، وتلفَّتُّ حولي في ذعر، وجاءني سؤالٌ أكبر أهمية: أين ذَهَبَتْ (يو)؟! بنت

الكلبة!! لقد فعلتُ كلَّ ذلك من أجلها، وليس من أجل تلك الفتاة المستذكرة التي تلبس قصيرًا. أبهذا تلاقي العمل الحسن! بالشر والخيانة!! وكيف تتجرَّأ أن تكون قادرة على التخلِّي عنِّي! .. هل هي من صُنعِ خيالي؟ رجعتُ إلى الذعر الشديد مرة أخرى، وأخذتُ أجري في أي اتجاه، وكل اتجاه كالمجنون. كالمجنون. كالمجنون .. نظرتُ بين الأشجار، ويبدو أن المطر توقف دون أن أدري، فلم أعد أسمع صوت ارتطام قطرات الماء الطويلة بأوراق وغصون الشجر .. صحتُ في توسُّلٍ عذبتْنِي مذلتُه، وصعبت له نفسي كثيرًا: يو! يو! أين أنتِ يا يو! فوجدتُ (يو) جالسة على رصيف الحديقة الناحية الأخرى، مقوَّسةً ظهرَها، خافية وجهها على أرجلها المضمومة .. شعرتُ بالارتياح المفاجئ من حالة الفزع من أن أكون ضللت الطريق وأصبحت تائهًا، والإشفاق عليها لأنها بهذا المنظر المسكين بسببي .. اقتربتُ منها وأنا في غضب شديد جدًّا لأنها تختبئ مني ولا ترد كأنها صُمَّتْ، وقلت بصوت غاضب: يو! .. لم أنتظر، بل اقتربتُ منها، وهززتُها في عنفٍ، وصحت: **يو!** لم ترد، فللحظة فزعت أن تكون ماتت حزنًا وإشفاقًا في الشارع تحت

الأمطار .. بسببي! .. صرختُ بصوتٍ عالٍ جدًّا – بما لا يناسب الموقف إن كانت حية- : **يو!** وهززتُها هزة عنيفة في هلع .. رفعَتْ عينيها الدامعتين الصافيتين – توقعت أن تكون مستغربة- لكنها تمتمتْ شيئًا بصوتٍ خافتٍ لا يُسمع، فرددتُ باستنكار: حسنًا! أنا المخطئ! فنظرتْ إليَّ مستغربة – لا أعرف أي من الأسباب جعلها تستغرب – لكني لم أعطها فرصة، ولا أعطيتُ فرصة لنفسي للتفكير .. مسكتُها من ذراعها الرقيقة، وشعرتُ بملمس فستانِها القماشيِّ الأبيضِ المبلولِ على لحمِها الطري، وتأبطتُ ذراعَها، ومشيتُ معَها غيرَ مهتمٍّ بغرق ملابسها وأنا سعيد؛ لأنها هي التي تأبَّطَتْ ذراعي، ولأنها أراحت رأسَها الصغير على صدري، ولأنني عرفتُ – أو تذكرتُ – لماذا كلَّ مرة أرجع إليها .. ولأنها حقيقية .. نعم لأنها حقيقية .. لكنها لن تعرف أبدًا ماذا يدور برأسي .. أبدًا .. وصدرتْ مني ضحكةٌ غسلتُ بها كلَّ ما حدث لتوه .. أردتُ أن أعتذرَ لها، لكني عدلتُ عن ذلك، وشعرت بثقل هذه الفكرة .. قالت: لماذا تضحك؟ فصدرَتْ مني ضحكةُ طُمَأنينةٍ أخرى، وأخذتُ أفكر في كذبة أردُّ بها .. عندما رآها طفلة صغيرة في نور الغرفة، كأنها

في ثياب أمها، نحيفة وصغيرة الحجم مرتبكة في تبرجها العنيف الذي يحاول عبثًا أن يجعلها أكثر إثارةً وإغراءً. قال لها وهو يجلس بجوارها على الفراش: "هل تعرفين معنى (الغواني)؟" هزت رأسها بـ"لا" .. "الغانية هي من استغنت بجمالها عن التبرج والحلي، ولذلك هي تمارس هذا العمل الشاق لأنَّ لها من الجمال الطبيعي والإغراء الخاص ما تكسب به رزقها" .. فتحَتْ أول زرين من قميصها الواسع محاولةً أن تبيِّنَ صدرَها .. ابتسم ابتسامة واسعة، وكاد يربت على كتفها .. كان خائفًا من ذاته (ويا له من وضع يخاف فيه!) .. ضعفها يثير فيه شهوةَ ضربها وتحطيمها .. كانت هشة، كأنما تدعوه لكسرها .. جَزَّ على شفتيه وهو يقاوم تخيل أنه يضربها وهي تصرخ باكية، لكن عاطفة — شبه أبوية- رغم صغر سنه، كانت تريد أن تحتضنها وتعطيها الأمان .. هذه المشاعر المتناقضة أثارت قرفَه واشمئزازه من الموقف كله .. نظر إليها، ووجدها كالبهلوان الذي يلبس ثيابًا واسعة فاقعة، ويضع مساحيقَ مبالغًا فيها .. حاول أن يصفعها ليُظهرَ اشمئزازَه منها .. بدأت تهُزُّ رجلها عندما لم يفعل شيئًا .. السيدة قالت لها أنه هو من سيفعل كل شيء، وعليها ألَّا تقلق

.. لا يبدو أنه يقدر على فعل شيء .. تذكرت المرة الأولى عندما صرخت وخرجت جارية عندما رأت الرجل – الذي يقولون له "الباشا"– يخلع ثيابه، وكان مغطى كليًّا بالشعر الكثيف، وكرشه يتدلى للأمام كوحش .. اضطرت السيدة للتدخل لإتمام العملية .. هذا يبدو أنه يمكن الوثوق به .. "طيِّب" .. إذا تقدر أنت قول هذا. أخرج عصاه السوداء، وحوَّلها إلى ضفدعة، فقفزتْ وقبَّلتْه في فمه .. ضرب رجله في الأرض، وقال لها: تأخرتِ كثيرًا .. فاجأتْه أنها تعرف! بصق على الأرض، وجرى باتجاه أمِّه الخيالية، وأخذ يصيح في الشارع: أنا في الصف الرابع! أنا في الصف الرابع! أنا في وعيي وأنا في الصف الرابع! أنا خيالٌ داخل رأس طفل هو أنا .. أنا داخل نفسي! أنا داخل داخل نفسي أو داخل رأسي .. أنا أشعر بنفسي، وأنا أشعر بنفسي، وأنا داخل رأسي .. لم ألحق كتابة ما كُتب على اللوح الأخضر! اللعنة! .. هاهي ثلاث عصوات جديدة! وعلى نفس الكف! هذا المستر عبقري!! .. لكنه ليس عبقريًّا كفاية بكراساته وكوب شايه الفارغ وعصاه تحت إبطه، وهو يخرج من الفصل ليدرك أنه في حُلم فتَّى سمينٍ في الديسك الثالث .. حلم كبير لانِهائي من

الحَيَوَات الممتزجة في منبعٍ واحدٍ كشلال من الأطياف الضوئية المسافرة في أنحاء الفضاء اللانهائي .. ملايين وملايين الملايين وملايين ملايين الملايين من الاحتمالات واحتمالات الاحتمالات واحتمالات احتمالات الاحتمالات ..

واجب اليوم: اثبت أنَّكَ لستَ في حُلم!

شَمْس

((لَمْ يَبْقَ كُفْرٌ وَلَا إِيمَانٌ، شَكٌّ وَلَا يَقِين))

جلال الدين الرومي

عليَّ أنْ أحكيَ القصَّةَ من البداية. قبل أن أولَد.

ربما بدايةً من أبي، القائد الذي أنشأ مجموعة "*أتباع شَمْس*" الثوريَّة، والمقتول في وضح النهار، وَسْط أكثر شوارع العاصمةِ ازدحامًا، وهو يناهز الثالثة والسبعين؟

عندما تخطَّى أبي الستين، أصبح يتكلم عن طريق الأسئلة، هل تريد هذا؟ هل أطفئ لك النور؟ ما هذا؟ يشير إلى كوب فارغ. ما هذا؟ ملعقة. ما هذا؟ شنطة. حذاء. قميص. شماعة. ساعة. جورب. بنطال. حوض سمك. طاسة. قفاز. كأنه رجع إلى الطَّورِ الطفولي في الاستكشاف والتساؤل. يقف أمام باب الحجرة، ويحدِّق فيَّ بنظرةٍ خاويةٍ، وإذا سألتُه لو كان يريد شيئًا، يردُّ بأنه لا يريد. فقط يفكر، إذا سألتُه فيم يفكر، يرتبك ويغمغم، ثم يقول أنه لا يتذكر.

في تلك السن، بدأ يحكي لي، من وَسْط تيهه، كيف تحوَّل الوجودُ الإنسانيُّ على كوكب الأرض خلال مائتي عام؛ في آخر مائة عام — التي شهد على ستين منها- حدثَتْ حملاتُ الإبادة المنظمة والموسعة، والتي نجحتْ في القضاءِ على البقع المحاصرة من

"المعطِّلين" أو "المتخلِّفين" كما أسمتهم وسائل الأعلام الكوكبية. أصبح الإلحادُ هو الإيمان الرسمي والفعلي لكوكب الأرض. تحولت الرقع الملونة على ويكيبيديا على خريطة "المؤمنين بالله" إلى اللون الأبيض كليَّةً. وتحوَّل تعريفُ صفحة "الله – God – Gott – Dieu – Dios –神" على نفس الموقع إلى "*كائن خيالي، كان من المفترض أنه أنشأ العالم والكون، أفنى الناسُ أعمارَهم، وأفنى بعضهم بعضًا في سبيل عبادتِه، الفكرة التي تجاوزَها الوعيُ البشريُّ أخيرًا كعقبةٍ نهائيةٍ أمام انطلاق البشر في تقدمهم المعرفي والعلمي والإنساني*".

أصبح الحكام ملحدين كشرط أساسي للترشح .. يتصارع كلُّ واحدٍ لإثبات إلحاده أمام الناس أكثر. هذا قبل أن يصبح الإيمان بهذا "الكائن" جريمة يعاقب عليها القانون، بالحبس أو الغرامة، أو كليهما معًا. الأمر الذي تطور إلي العقاب بالقتل "الإنهاء". المسوغ الأخلاقي الذي وُجد لهذا، أن الشخص الذي يؤمن بوجود هذا "الكائن الخفي" يعطِّل حريةَ الآخرين وتقدمَهم، ويلوث المجتمع البشرى بأفكار مدمرة هدامة. العالم بلا رب. بلا سيد. نحن أرباب الأرض. نحن الأسياد. لا تدعْ أحدًا يخدعك

مرة أخرى. لا هناك سوى هنا. لا يوجد من يستحق التقديس سوى أنت.

بين الفواصل الإعلانية على القنوات الفضائية، حملات مكثفة. كل ساعتين برنامج توعية للجماهير يتولَّاه نجوم السينما والفن والمجتمع: "عش الآن!" – "عش أفضل حياةٍ لك، لأنها حياة واحدة فقط!" – "هناك ربٌّ أعبده، الإنسان!". ويبدأ الفصل الدراسي بالمدارس في مادة العلوم الإنسانية بهذا السؤال: "إذا كان هناك إله، فلماذا كلُّ هذا البؤس والشقاء والألم الذي نراه على الأرض؟ إمَّا أنه غير قادر فهو ليس إلهًا، وإمَّا أنه راضٍ بذلك فلا يستحق الالتفات إليه، وإمَّا أنه غير موجود". تمَّ هدمُ الكنائس و المعابد والجوامع والهياكل، أو تحوَّلتْ إلى مراكز اجتماعية للأنشطة الثقافية، متاحف علميَّة، أندية للتجمُّعات، ساحات لممارسة الرياضة، تذكارات للسَّلام.

ظهرت مجموعات أهلية لتدعيم وترسيخ الفكر الإلحادي أسموها "المجالس"، وأصبح هناك "هيئة المجالس الإلحادية الشرقية" – "هيئة المجالس الإلحادية الغربية" – "الهيئة العامة للمجالس

الإلحادية الأفريقية" – "الهيئة العامة للمجالس الإلحادية" و "الهيئة العليا للمجالس الإلحادية" عندما انضمت تلك المجالس الأهلية إلى الحكومة الكوكبية المركزية.

وهنا يبدأ دورُ أبي. في البداية كان عضوًا في جماعةِ شبابٍ سريةٍ صغيرةٍ "تحت الأرض" تبحث عن التمرُّد والحرية وكسر التابوهات التي أصبحت تلازم الجسد كما يقولون. عددهم اثنا عشر. فكروا في احتمالية وجود خالق أكبر (أو أصغر) من أن نراه. أبعد (أو أقرب) من أن نشعر به. لم يجدوا عن تاريخ الإيمان سوى بعض النصوص الناجية من حملات التطهير .. منها ما يبدو أنها تخصُّ شاعرًا من بلاد فارس عاش في القرن الثالث عشر، عن شخص أو كيان يسمَّى "**شمس تبريزي**". ومن ثم الاسم الذي اتخذوه: "*أتباع شَمْس*".

عبدوا في البداية السماء، ثم الأرض، ثم الشمس، ثم القمر، ثم الحيوانات، ثم النار، ثم الرعد، ثم الرياح، ثم البركان، ثم البحر، ثم الأسلاف، ثم العناصر الأربعة الأوليَّة معًا، ثم الآلهة الصانعة لها والمتحكمة فيها، ثم انتخبوا الإله الكبير، فظهر تيَّار

الوحدانية، وقضى على الوثنية الوليدة في مهدها داعيًا بسخافة عبادة قوى الطبيعة مُفرَدة أو متفرقة ..

بعد أن مُسِحت التواريخ الدينية عبر التدمير المنهجي للحكومة المركزية لتاريخ الديانات من الحضارات البشرية، ارتحل المسؤولون في "*أتباع شَمْس*" لسدِّ الفجوات: محمد منقذ شعب إسرائيل. موسى إله المسيحية. يسوع هو نبي الإسلام. بوذا راهب متقشف رفيع الجسد. كونفوشيوس صبي حكيم ذو مواهب إلهية. وانشقَّ من الإسلام بروتستانت وكاثوليك، ومن اليهودية شِيعة وسُنَّة، ومن المسيحية سيخ وطاويون. هذا قبل أن يتفق الجميع على عبادة الرب السيد الإله الواحد الأحد **شَمْس**.

كانت هناك جلسات سماع هذا الشعر في مديح **شَمْس**. ومن مصادر أخرى مثل "مثنوي معنوي" أو شيء من هذا القبيل. كنَّا ندخِّن الحشيش غائبين في هذه الرؤية الميتافيزيقيَّة غير معتادين عليها. غير معتادين على هذا الحنين المرعب لشيءٍ خارجيٍّ عن الموجود. كنا نسمع مُوسيقى خلال الصوت العميق الذي يتلو الأبيات داخل القبو الذي يضمنا تحت الأرض. ويقوم

بعضنا يرقص في هيام فاتحًا ذراعيه، ويدور في حركة ارتجاليَّة تعبر عن نشوة دفينة تدفعه دفعًا للدوران والرقص، بل إن بعضهم كان يُخرج جيتارًا، ويعزف خلفيَّة نغميَّة أو لحنيَّة تسعى وراء هذا التدفق الناعم والشجي.

كنا ندرك خطورة هذه الأفعال. دعني أقرِّب لك الفكرة وأحكِ لك عن صديقتي. صديقتي انهارَ والداها عندما رأياها، وهي طالبة في المدرسة الثانويَّة، تُصلي في الغرفة في الخفاء. تتمتم راكعةً في الظلام أمام فراشها، ماسكة بكلتا قبضتيها أمام جبهتها مغمضة العينين. صرخت الأم، وهرولَتْ إلى الأب جزعةً تخبره عمَّا تفعله ابنتهما في الغرفة المغلقة. سحبتْ صديقتي بسرعة برنامج كتاب الصلوات من جهاز "الآي ريد – iRead". لكنهم حبساها في الغرفة، وجلبا لها طبيبًا نفسيًّا ومندوبًا متخصصًا من مجلس الإلحادِ المحلِّي.

وانتحرَتْ صديقتي وهي تناجي **شَمْس**.

* * *

الأهالي والكبار يخافون من فسادِ المجتمع. وجَّه رئيس العالم بجميع قنوات البث الأرضية والفضائية والإنترنتية: "*إنَّ تلقين الأولاد الصغار والصبية والمراهقين بأن هناك عوالم أخرى وراء هذا العالم الذي نعيش فيه، سوف يجعلهم يسائلون السلطة ومن ثم يتمردون عليها، ويدمرون المجتمع الذي نوضل كثيرًا عبر التاريخ البشري الطويل من أجل نيل والحفاظ على سلامه وتقدمه ونظامه*". كانت هناك هجمات مكثفة من "الهيئة العامة للمجالس الإلحادية" دعّمت حملات الإبادة الموجهة نحو مجموعة "*أتباع شمس*" التي يرأسها أبي. وقيل إنهم مندسُّون ويريدون السيطرة على العالم بأجنداتٍ خفيَّة، وإنهم (مسجلون خطر) وبلطجيَّة وسفاحون يسعون إلى الفوضى والدمار؛ بل وصل الأمر لقول إنَّ فيهم عملاء من الفضاء الخارجي جاؤوا مع السفن الاستكشافية الراجعة. أي شخص يقبض عليه متلبسًا بالصلاة آنذاك، أو معه "مادة دينية خطرة"، أو حتى يثبت له صلة أو تعامل مع المجموعة، "يُنهَى" فورًا.

الجميع كان يعرف تلك النكتة عن المجنون الذي يخاف من عقاب الله على إلحاده. عندما سأله الطبيب بعد الفحص: لكنك تعرف جيدًا أنه لا يوجد إله. ردَّ المجنون- ويبدو أنه كان خبيثًا- نعم، أعرف جيدًا أنه غير موجود، لكن هل يعرف هو ذلك؟

شرح أبي ردًّا للتساؤل الذي يطرح نفسه - بجانب أفكار أخرى كثيرة - في كتابه "*الوَجْهَان*": كيف تحمَّل الناسُ عدم حريتهم الظاهر هذا؟ قال "*المجتمع أكثر من مجرد كيان يكوّنه أفراد، بل إنه مجموع العَلاقات بينهم، وكيان اعتباري متحرك وديناميكي، ولذا حُلت هذه الإشكالية باختراع مساحة حرية اجتماعية وفردية تخيلية شبه مُطلقة عبر آليات التكنولوجيا وتطبيقاتها. أثناءها، يفرض المجتمع سيطرته في الخلفية، بينما يشعر الفردُ بحريته الذاتيَّة، ومن هنا يُحل التناقض القديم بين الحرية الفرديَّة، وتماسك المجتمع وسلامته*". "*والذي يجعل الناس تعيش بهذه الطريقة هو الشوق للنظام .. الرغبة في إخلاء العالم من الأسطورة .. يصير فيه كل شيء على أكمل وجه، والعمل ممنهجًا، تابعًا لنظام يتجاوز ما هو شخصي*". حاول أبي أن

يثبتَ طوال حياته، الأنالوجيةَ المتطابقةَ بين البشرية والبشر .. إن البشرية توازي مراحل عمر الإنسان .. طفولة في الفهم متمثلة في الوعي الأسطوري، ثم معرفة علمية أوليَّة ظاهرة بصورة كليَّة ووحيدة، ثم إلحاد الشباب والفتوة بسبب الانعكاس الذاتي، بعدها الإيمان العميق، الرُّوحانية النهائية العارفة التي تدرك حقيقتها.

* * *

المحتجب في عليائه. المحتجب فينا. له أكثر الأشكال خطورة بعدًا وقربًا ..

كما يقول أبي يرحمه **شَمْس**. أو يرحمه هذا الوهم الزائف.

القط

(عن قبلة)

" عُشَّاقٌ مَحْمُومُونَ وَمُفَكِّرُونَ مُتَقَشِّفُون

الحُبُّ بِالتَّسَاوِي، فِي مَوْسِمِ نُضُوجِهِمْ

قَوِيَّة وَرَقِيقَة القِطَطُ، فَخْرُ المَنْزِلِ

مِثْلُهُمْ يَشْعُرُونَ بِالبَرْدِ، مِثْلُهُمْ مُسْتَقِرُّون"

شارل بودلير

هل الإنسَان حيوان؟

السؤال فيما يبدو من بديهيته، إلَّا أنه ككلِّ الأشياء البديهية، يحتاج إلى شيءٍ ما يشير إليه من الخارج. ظلَّ هذا السؤالُ معلقًا بمرارةٍ في ذهني، وأنا صاعدٌ من عند جاري في الدور الأول لأرى توصيلات جهاز (الراوتر) المشترك بيننا من أجل توصيل خدمة الإنترنت؛ لأنها كثيرًا ما تفصل مسببةً انقطاعَ الخطِّ عندي بالدور الرابع. كنتُ أنتظر في طُرقةِ استقبال شقته، حين وجدتُ قطَّةً سوداءَ شديدة الجمال، كنت قد رأيتُها من قبل مراتٍ قليلةً، على خلاف صديقي القط الأبيض الكبير بالخطوط البرتقالية الشَّائهة على ظهره، السَّمين بشكل غريب عن القطط التي رأيتها في حياتي. استغربتُ بدايةً الأمرَ كيف عَرَفْتُ أن هذا القط الأسود، أو بالأصح القطة، جميل. كانت تبدو كسَيِّدةٍ أنيقةٍ متناسقةِ الجسدِ والملامِح . . فهد أسود يسير متعاليًا ومتبخترًا، حتى إن مشيتها ذكرتْني بمصطلح "مشية القط" الذي يستخدمونه لوصف حركة عارضات الأزياء المحترفات على شريط العرض الرفيع. بدأ القط الأبيض يموء بصوت غريب ويقفز على الحسناء السوداء رغبة في اللقاء. ماءتْ ثم لفظته بعيدًا بجهد واضح لتفاوت الأحجام. عاود الكَرَّة، وهو أكثر تصميمًا. تعدَّدَت

المرَّات، وفي كل مرةٍ يزداد يأسًا وإلحاحًا وتعطفًا. يموء، ويغرز أسنانَه خلف رقبتها من الأسفل، ويضع عضوه فيها، قبل أن ينتزعَه جاري في لا مبالاة أحيانًا، وأحيانًا باهتمام يدعُ الحسناء لتهرب فوق دولاب "النيش".

* * *

أنا وحبيبتي في الشارع نتصالح بعد خناقتنا الصغيرة، وكلانا مصاب بنزلة برد. لا أحد منَّا يُعلِّق على التشوُّهِ اللفظيِّ للكلماتِ الخارجةِ في عصبيةٍ وغضبٍ بسبب انسداد قناتَي الأنف، نظرًا لجديَّة الموقف. كنت أريد أن أضحك، ولكني انتهزتُ فرصة الطاقة الحبيسة، وأغضبت نفسي أكثر:

– إزاي تروحي من غير ماتقوليلي؟

تمخَّطَتْ بطريقةٍ جبَّارةٍ في منديل مسكين، واحمرَّ أنفُها أكثر (كأن هذا ممكنٌ!):

– يعني منتا كنت هترفض.

وقفتُ في حيرة وتعب وغضب .. كنتُ أريد أن أقول لها أنها خدعتني؛ لأني لم أُردْ أن تقابل هؤلاء الأشخاص بالذات لأنني

أكرههم، لكن الدوار وقلة الصبر دفعاني قدمًا للمصالحة عن طريق قُبلة، لكنها أشاحت رافضة بسبب إصابتي بالبرد:

– مانتى عيانة "بردن"!!

* * *

أغلب نقاشاتنا – طوال اليوم – كانت تدور حول أهمية القبلة – بالنسبة لي بالطبع– ودور الجنس في فهم حقيقة الآخر. العَلاقة الجنسية التي توضح طبيعة العَلاقة: من المسيطر؟ من يحب الطرف الآخر حقًّا؟ حيث تسقط الأقنعة وتُعرَّى الشخصيات إلَّا من لحمها الحي. كل شخص يقف عاريًا أمام الآخر إلَّا من نفسه.

– فرويد اتكلِّم عن أهمية التحرر الجنسي عشان الواحد يكتشف ذاته الحقيقية، أنه يطلق المكبوت في عقله الباطن.
– بس فرويد قال ان الإنسان مجرد حيوان جنسي، وان ربنا دا اخترعناه عشان قتلنا الأب.
– مش لازم يكون فرويد صحّ في كل حاجة!

- يعني انت اللي بتستشهد بفرويد وزعلان إني بقولك هو قال إيه؟!
- عندِك حق .. إنتي صحّ ..
- لا إنتَ اللي صحّ!
- لا إنتي صحّ يا حبيبتي .. إنتي "إنسانة" ذكية ..
- لا إنتَ أذكي مني يا حبيبي .. إنت اللي دايمًا صحّ ..
- لا إنتي اللي صحّ.
- لأ بقى بجدّ .. إنت اللي صحّ.
- طيب خلاص ماتضايقيش أنا اللي صحّ ..
- يا سلام .. لأ كلامك ناقص، وفرويد قال الإنسان أناني مش زي ما بتقول الإنسان كائن محب بيبص للآخر.
- بسيطة،.. يعني إنتي مابتحبنيش؟
- مممم..عندك حق يا حبيبي .. كل حاجة بتقولها صحّ ..
- لا .. إنتي اللي صح يا حبيبتي.

- طيِّب إنت بتحبني فعلًا؟
- ممكن أشتمك؟!
- ليه؟
- لأن الشتيمة أولًا تنفيس للمشاعر السلبية بصورة واضحة .. زي اللي بيروحوا في الجراج يكسروا قزايز أو يضربوا نار في الصَّحَرَا .. أو يتخانقوا في الشارع عشان كسره عربية... ثانيًا عشان هي تنفيس جنسي على المستوي اللغوي .. ثالثًا عشان هي رفض قيود على اللغة غير منطقية فَرْضَاها المؤسسات الاجتماعية تحت مظلة الاخلاق والدين والذوق العام .. وهي تمرد على الطبقة البرجوازية، ورؤيتها الأيديولوجية للمجتمع اللي منعكسة في لغتها اللي بتهيمن على الطبقات التانية في المجال العام (في حين إنها داخل الحيطان بتستخدمها بضراوة) .. دا غير ان الشتايم بتعمل ألفة مع الجنس والأعضاء الجنسية ..

- بس الشتيمة دليل على السيطرة واحتقار الأجناس الأضعف .. دليل على السيطرة والكراهية اللي انت بترفض وجودها
- الرحمة بقي!!

بدا لي أنها اقتنعت، لأنها قالت وهي ذاهبة لمحطة المترو أمام السلم:

- بوسني ..
- نعم؟! دلوقتي!
- ايوه، دلوقتي .. بوسني!

أهرش رأسي من الخلف. أنظر لها:

- عارف إني هاندم بسّ مش هاعرف أبوسك هنا .. أضيف في غضب: "مَنَا بقالي ساعة في الشوارع الضلمة اللي داخلها قصد بحاول أبوسك وانتي مش

عـايزة .. جايـة دلـوقتي بالـذات وسـط الميـدان وعـايزة تتباسي؟!".

- عشان أنا اقتنعت بكلامك، وحاسَّة إني عايزاك تبوسني دلوقتي .. إنت حُرّ .. يا دلوقتي وهنا يا بلاش .. أنا اتأخرت .. قرر بسرعة.
- مش هاقدر..
- إنت اللي مش عاوز أهو .. وعمَّال تقولِّي مش عـارف إيه .. يلَّا سلام ..
- يابنت الكلب!

* * *

وأنـا راجـع، فكـرتُ في محمـد فـوزى الرقيـق الـذي يعتمـد في أغانيه على النغمة الخفيفة الراقصة، كيف رفض رفضًا قاطعًا أن تعمـل أختـه – هـدى سـلطان– ممثلـة ومغنيـة مثلـه، وهـدَّدَها بالضـرب والطـرد، لـيس فقـط لأنـه عيـب أن تظهـر المـرأة علـى الشاشـة وينكشـف صـوتها للجمهـور فيعـرض نشـوة موسـيقية

جوهرها إيروتيكي، بل كان اعتراضه الأساسي على مشاهد القُبَل في تصوير الأفلام.

* * *

جاءت أخيرًا، وأنا منتظرٌ أسبوعًا كاملًا هذا اللقاء، ركبنا السيارة. تعمدتُ الخروج على الطريق السريع لقلة السيارات فيه. في منتصف الطريق، حاولتُ تقبيلها، لكني لم أعرف أن أقود وأقبِّلها في آنٍ واحِد، كما أنها كانت تتباعد في تدلل كلما حاولتُ الاقتراب. أحاول أن أحسس على فَخِذِها .. تدفع يدي بعيدًا، وعندما لا أعاود وضعها – احترامًا لرغبتِها– تنظر إليَّ، ثم تأخذ يدي تداعبها، وتضعها في خبث على رجلها مرة أخرى. أحاول تقبيلَها .. تباعد مرة أخرى. أزفر كرهًا في عيشتي، وأنظر بيأس إلى الطريق السريع.

* * *

تقف وتُصوِّرُ البيوتَ القديمةَ في منطقة (الكوربة) بمصر الجديدة، وأنا واقف بجانبها. التفتَتْ لي:

- قلبك ..
- إشمعنى؟

تنظر أمامها مرة أخرى لتصوِّرَ وهي تغمغم: لا حول الله. وعلى وجهها ابتسامة خبيثة.

فهمتُ من نظرة عينها وابتسامتها: أخيرًا! جذبتُها داخل مدخل العمارة القديمة، حضنتُها وهممتُ بتقبيلها، حتى خرج لنا من جوف العمارة القديمة رجلٌ رفيعٌ طويلٌ يلبس جلبابًا يصيح في غضب، **في إيه! عايزين مين!** .. خرجنا فورًا دون النظر للخلف، وقد بدأ في إطلاق الشتائم من ورائنا.

- *" إديناه حقنة. لكن لسَّه عايزها. بصّ بيجري وراها ازَّاي. فظيع. بيموء وينونو طول النهار والليل. تعب أعصابنا"*

أمامي في لحظة، تمثل لي الموقف كمسرح خيال الظل الشعبي: القط الأبيض الكبير وجاري، وفي الخلفية نموذج القاهرة، مدينتي القذرة المليئة بالقبح التي لا تريدنا أن نتحاب، ومن ورائها

يد جاري الهادئ، يد مجتمعنا القذر، يد تربيتنا المريضة النظيفة المنكفئة، تمسك بالقط والقطة وبي وبحبيبتي، وتعمل في إصرارٍ عجيبٍ مجنونٍ، كأن السببُ الوحيد الذي وُجِدَتْ من أجله هو إشارة "لا": لا نافية، لا ناهية، لا قاصية، لا خاصية ..

- "*بياكل كتير ومش عارفين نسيطر عليه .. عايز تاخده؟*" ."*شكلنا كده هانعمِّله العملية ونستريَّح*".

س

انفجرتُ ضاحكًا، متزامنًا بالضبط مع انطلاقِ المواءِ المريرِ للقطِّ الذي راح يتقافز كأن عفريتًا ركبه، يغربش بصورة يائسة في السجاد، تنجيد الكراسي، ودولاب النيش والجدران. لا حول العالم!!

الورد اللي فتَّح

((الشُّهداءُ، يا صديقِي، لا بُدَّ من أن يختاروا بين أن يُنسوا، يُسخر منهم، أو يُستخدَمُوا؛ أمَّا أن يُفهموا — أبدًا))

ألبير كامو

عندما علم أبي، عاد إلى صمتِه مذهولًا أكثر، يخيل في أفق جبهته ابتسامة ذاهلة، واستمتاع من يتفرج على مسلسلٍ لا عَلاقةَ له بحياته .. ناس تحارب وتموت وتقتل بعضها بعضًا، وليس لهذا كله دخل به ولا بسلامته الشخصية.

سألني وهو بنفس الابتسامة المعلَّقة: لازلتَ مؤمنًا بالثورة؟

* * *

تأكَّدَ لي أنَّ هناك فرقًا بين قراءة التاريخ وصناعته، بعد مشاهدة هذا بأمِّ عيني، واجتيازه بجسدي، تبيَّن ببساطة ووضح لي أنَّ من يصنع تاريخ العالم هم المجانين. كان صوت "العقل": لن أذهب، سوف يضربوننا بالعصا والمياه ويحتجزوننا. لا تكن مجنونًا! صوت العقل أيضًا، في نفس اليوم، على الهاتف، كما في داخلي: قد فعلتَ ما عليك، ارجع إلى بيتك الآن! صوت العقل لثالث مرة: ماذا سيستطيع حفنة شبابٍ أن يعملوا؟ أنتم مجانين ومغسولة عقولكم. صوت رابع: كفى الآن لن تحوزوا شيئًا!

ما حدث، كما حكيتُ لاحقًا، هو أني شعرتُ بكهرباء حارقة في كلِّ جسدي، وأنا مبتلٌّ تمامًا بسبب خراطيم المياه. صرختُ من الألم. جريتُ في الاتجاه المعاكس محاولًا الهروب والاختباء في مكان ما. الكمامة لا تفعل شيئًا مع قنابل الدخان التي يرمونها كالـ"بونبوني". فقط تجعل بخار التنفس يغمش عدسات النظارة الغارقة أصلًا في المياه، فلا أرى شيئًا وَسْطَ ظلمة الميدان الذي قطعوا النُّور عنه. أشعر بشللٍ وألمٍ في رجلي اليُسرى. رائحة الدخان خانقة. أخرجُ للنور فأرى بقعًا كبيرة قانية في بطني وحجري وفَخِذي ويدي. أصرخ لأحد يمسك كاميرا يصوِّر الأحداث، ضربوني ولاد الوسخة! أعرُج. أغلقوا المنافذ بالجنود. كلما حاولتُ الذهابَ في اتجاهٍ لم أجد سوى الصف الأسود. رآني الناس فحملوني. اسمك إيه؟ مينا .. هشام وأحمد .. ضربوك بإيه؟ معرفش، شكله رصاص مطاطي .. متصدَّقش اللي بيقولوه إحنا كلنا اخوات وهمَّ بيوقعوا بينَّا. عارف صدقني. صيدلية قريبة: "لا نستطيع عمل شيء معه، خذوه إلى المستشفي، أوقفوا سيارة" .. دخلتُ الطوارئ، لا أفكر إلَّا بأمي التي ستبكي بهستيريا لو رأتني في هذا الوضع. لا أريد لأهلي أن

يعرفوا بهذا. أخذوا مني البطاقة – ممَّا وتربي– فور دخولي مع أخذ بياناتي عدة مرات وأنا أنزف، حتى تعصبت، لكن يبدو أنهم معتادون على عصبية تكرار إملاء البيانات إلى ما لانهاية .. "هوَّ جالنا حالات الضهر .. بسّ مكنش بالبشاعة دي". يقول طبيبٌ شابٌّ لزميله في نظرة أسى تحاول أن تكون محايدة. الطبيب الكبير قال لي: هاتعيش بيهم يا وَحْش .. مش هاتحسّ بيهم .. أصل مش ممكن هانشيل لك خمسين ستين واحدة. وأنا بملابسي الداخلية، دخلَتْ ممرضة ثم ضحكتْ. قلت لها بتضحكي على إيه؟ كمشتْ وجهها بسرعة، ثم نظرت بعيدًا كأنها لا تنتبه. أخذتُ أقهقه وأنا أعيدُ "بتضحكي على إيه؟" .. ضحكي وتفكهي مع الممرضات والأطباء جعلهم يتعاطفون معي بشكل ما. كان واضحًا أنهم يريدون مساعدتي بأي طريقة. كنتُ هادئًا جدًّا وصافيَ الذهن تمامًا، لكني قلقتُ عندما دخلتُ غرفة الأشعة وقال لي الفتى التقني أنهم سيأخذونني في المباحث. تخيلتُ غرف الاستجواب، والممرات الطويلة المقبضة المتربة، وساعدَني على التخيل حائطُ الغرفة المتسخ، وبياضُه السَّاقط، وحُفَرُه الكثيرة. يعني أتضرب ويتقبض عليا؟ أثناء ضَيْقِهم ودعاء

الممرضات على الشرطة والحكومة المفترية، أرجعوا لي البطاقة. أشعَّة وسونار ومراجعة على الأعضاء. المباحث تقف على باب الغرفة دُرَف باب: هوَّ دا مينا؟ ملح وبتادين. إذا خرجت من هذه الغرفة سيقبضون عليك .. هربت من الباب الخلفي .. الشراب في جيبي .. ألبس الحذاء حافيًا بألم بشع .. أقفل السويتر من أجل الدم على الملابس .. أحاول المشي بدون عرج أو استناد وأنا أُصفِّر .. أخرج من البوابة الخلفية التي فتحوها لي بالإشارة مع البواب .. خرجتُ للشارع .. عربات الأمن المركزى أمامي، والجنود ينظرون إليَّ من بعيد. يبدون كأفراد جيش مستعدين للقتال. أحاول الحفاظ على هدوئي. أتحرك بطيئًا، وأحاول أن أُسرع دون أن أنظر إليهم، ودون أن يلاحظني أحد .. أشير إلى أي تاكسي .. لا يوجد تاكسي يريد أن يقف .. أخيرًا واحد توقف. تحاملتُ كي لا أتأوه بجانبه في الطريق فيخاف وينزلني. دفعتُ له مبلغًا فلكيًّا. لا أعرف كيف صعدتُ على السلم. فتحتُ بابَ الشقة وأنا أتسنَّد على الحوائط .. أختي استيقظت من النوم بالمصادفة .. تنظر إليَّ من نور الممر وهي

مغمضة العينين .. تصرخ ثم تبدأ في البكاء .. أبي يستقيظ .. و .. أنا بخير، لا توقظوا ماما!

أخذتُ أرتجف طوال الليل في الغرفة المظلمة، وكدتُ أبكي من الألم والمهانة، لكنني توقفتُ فجأة، لسببٍ لا أعلمه حتى الآن!

* * *

خلال يومين عُرضتُ فيهما على أطباء وجراحين ليقرروا كيف سأخرج الشظايا من جسدي. صرخوا فيَّ كثيرًا، خصوصًا أختي التي تكبرني بعام. أبي قال: أنت غبي، وما يحدث هو أن الميدان مليء بالإخوان الذين يريدون الانقلاب لأخذ الحكم، ويغسلون عقول الشباب مثلك، ويجذبونهم إلى هناك. ومبارك لن يتنازل عن مكانه إلَّا مقتولًا؛ فهو رجل عسكري قاتَلَ في أكتوبر و٦٧. ومبارك رجلٌ صنع الكثيرَ لمصر، وهو الذي يحمي الأقباط من خطر الإسلاميين. وإني مبالغ في كراهيتي له؛ فقد تقدَّمَ حال البلد كثيرًا، وأصبح هناك كهرباء وتليفون وإنترنت في كل بيت. فأنا لم أر عصر عبد الناصر، حيث الجميع خائف ولا يستطيع

التكلم، وكل فرد يشك في زوجته وجاره، وحيث كان الناس لا يجدون الرغيف ليشتروه، وأقل مشوار يأخذ أربعة ساعات. تُردِّد أمي كالكورس: لا .. أنت لم تر شيئًا. رَدِّي .. هربتُ من البيت.

* * *

في المكان الذي احتجزونا فيه، جاءنا الخبر. الخبر الوحيد الذي تسرب لنا داخل الحجز. رقصتُ وصرختُ وقفزتُ وهتفتُ وجريتُ ولطمتُ وولولتُ وزغردتُ وحضنتُ وتبولتُ وتمخطتُ وتجذعتُ وتلويتُ. الجنون هو ما يصنع التاريخ، لا العقل. المحلِّلون الذين يمنطقون الأمور على كنبات البرامج، أصبح لهم ما يتكلمون فيه بسبب جنون شباب التحرير، وصياعة الشباب الشعبي الذي انتحر في عروس البحر أمام رصاص الجبناء، ورقص السمسمية، وحفل مجون السويس، وآر بى جي العريش، ولعلعات سينا، ومش هانمشي هوَّ يمشي، والشعب يريد إسقاط الرئيس، ونمسك إيدين بعضنا يا جماعة عشان لما يضربونا مانتفرقش.

بعد خروجي من الاعتقال، كانت قد كُشِفَتْ غُمَّةُ الحزن التي دخل فيها أهلي بكآبةٍ، وتعاملوا مع الواقع، باستثناء أبي الذي رأيتُ فيه انكسارًا لم يذهب حتى بعد مجيئي، وفرحته مثلهم بقدومي. وأنا أحاول أن أستجلي الوضع، اكتشفتُ أن موقفي كافكاوي بامتياز؛ فجنون الثورة يحتاج إلى وقود – ووقود الثورة هو الدماء، دماء الشهداء والمصابين– لأجل ذلك خرجَتْ قناة الجزيرة بخبر وفاتي إثر ثلاثين شظيةً– بجسدي الآن وقت الكتابة إحدى وستون– معلنين أني شهيدُ الأقباط في الثورة. الأمر اتسع في جنون. آلة الإعلام المهولة ضدي وحدي. لوحة في الميدان بعرض عشرين مترًا. إذاعة الثورة تعلن اسمي. مايكل منير (رئيس منظمة أقباط المهجر) يصرخ باسمي على قناة "الحياة" (؟) ليدلِّلَ على مشاركة الأقباط واستشهادهم .. كلما حاولت سَدَّ ثَقْبٍ، نَفَذَ الماءُ من جهةٍ أخرى. شعرتُ أني أحارب كيانًا لامتناهي الأذرع لأحافظ على كوني بقيدِ الحياة .. الجميع قد آمن أني متُّ واستشهدتُ، من أجل الثَّورة. كُلُّ شخصٍ يقابلُني، بعد ذهوله وارتباكه، وتأكيدي له أنِّي حيٌّ أرزق، وأنَّ ما نُشر عني هو كذب، أرى في عينيه اتهامًا لي: أتحارب الثورة؟ فلول؟ الثورة تقول

إنك شهيد، هل تعرف أكثر من الثورة يا كلب؟! .. فهمتُ يائسًا لحظتها أني لا أستطيع حِيالَ هذا أنْ أفعلَ شيئًا. يأسًا فهمتُ أن الإعلام الذي في صف "الحق" أيضًا يحتاج أنْ يتجمَّل/يتقبَّح (يكذب؟)، وأنَّ طالبَ الحق، بشكلٍ ما أيضًا، يحتاج أن يدعم مطالبه بتصوير أقوى لأسبابه وحاله ومكارهه. كنتُ أعمل في شركة إنتاج وإخراج، حيث طلب العميلُ عملَ فيلم عن فلسطين – خلال المادة المصوَّرة لحملةِ تبرُّعَاتٍ لها– يشترط فيه ظهور البيوت المهدمة، والسكك المقطوعة، والمستشفيات المنهوبة، والخيام المشردة، والجثث المبتورة، والأطفال الصارخة، كما جاء في الإيميل. لها فتحنا المادة من صور وفيديوهات، وجدنا بيوتًا كاملة، وشوارع واسعة نظيفة، ومستشفيات على أحدث طراز، وأطفالًا باسمين. قلبَ المخرجُ شفتيه في امتعاض: فين البيوت المنكوبة والسكك المقطوعة؟! فين الدِّماء والأشلاء؟!

سألت (عُمَر) في الميدان: هل أقول لهم إنني حي أرزق؟ .. بصراحة لم أنتظر إجابته وأنا أتخيل خيبة الأمل على وجوههم، وتلك النظرة في عيونهم "ياريتك كنت ميت، كنت فِدتنا أكثر.

ألا تخجل!! ". فقط أسأل حلاوة روح. لم أستطع تحمُّلَ إمكانية أن أرى هذه النظرة. ردَّ عُمَر وهو ينفث دخان سيجارته وينظر للوحة: "اللوحة متكلفة كتير، سيبها تعمل جوّ" .. الشهداء! الشهداء! لا أنسَى وأنا أسير في الميدان أنَّ أغلب الصياحات كانت للشهداء. قلتُ له: "هل نحن في جنازة؟". المجموعة التي نسير معها تصر على ذكر الشهداء وأخذ حقهم ولا شيء دون ذلك! أعرف أن درجة الغليان التي أرادت "الثورة" أن تحافظ عليها تحتاج إلى فحم جثثِ الشهداء. لكن ألا توجد صيحة نصر واحدة؟ ولا أمل في حياة أفضل بعد كل هذا الثمن الفادح الذي دُفع من أجل تلك اللحظة؟ ولا ترتيلة واحدة للحياة القائمة ولم تذهب بعد؟ ربما لم أكن حساسًا بهذه الطريقة، لو لم أكن أنا نفسي في كومة الفحم هذه، وحيدًا بين عالمين، ولا أجد سلاحًا لمواجهة هذا الجرن الخلفي الهائل المشتعل للثورة الذي يحاول الإبقاءَ على اشتعالها.

أغانٍ وأغانٍ عن الشهداء .. كلُّ شخص على التلفاز أو في المقهى يقدِّم كلامه بالحديث عن الشهداء. لم أعد أتحمَّلُ النظر في كل قوائم الشهداء بحثًا عن اسمي، خوفًا من أن يكونوا قد وضعوا صورتي بجانبه. لم أعد أتحمل كروت الشهداء التي تباع في الشارع بجنيه. البوسترات الكبيرة بالمواصلات والشوارع والمطاعم والصيدليات والتلفزيون. كل صورةٍ منهم تنظر لي وتلومني أني خنتهم لكوني لستُ معهم حيث يكونون. أني تركتهم ورجعت. ازداد خوفي من أن أرى صورتي، في أي مكان من هؤلاء، بينهم، تنظر لي من العالم الآخر، في ابتسامةٍ استعارَتْها مني، كهُويَّةٍ أخرى، قَدَرٍ آخر، لد"شهيد مينا ناجي". رعب أن ترى نفسَك الميتةَ تنظر إليك. روحك استعارها شخصٌ ميت، وينظر إليك مسائلًا: من أنتَ لتأخذ هيئتي؟ كيف تجرؤ أن تكون أنا؟ أأنتَ تصريفٌ آخر أحمق للقدر؟

* * *

علمتُ بعد رجوعي إلى البيت خِطبةَ من أحببتها يومًا. قل لي مرة أخرى، كيف يترك النَّاس بعضهم، ويروحون لأشخاص

آخرين؟ صَمَتُّ. قضيتُ يومًا كاملًا لا أتكلَّم. اعتقَدَ أهلي آنذاك من تأثير السجن عليَّ. في آخر اليوم فقط قمتُ وأكلت. ابتسمتُ، وقلتُ إنهم ارتاحوا من صراخي المتلاحق ردًّا على كلامِهم، وعلى الكذب الفاقع للـ"النيل المصرية" و "النيل البرازية" و"البولية" و"الحصوية" و"القحبية" و"العاهرية". لم أعرف هل أفرح بالثورة التي فعلناها، أم أستسلم لتمزقي الداخلي. شعرتُ بأن الثورة لا ترحم. سهم مُحرِق يتجه إلى هدفٍ معيَّنٍ بغضِّ النظر عن الخسائر الشخصية، وآلام المصاحَبَة في الطريق التي ليست لها عَلاقة به. لم أعرف حتى أن أكتئب، وهو ما زاد اكتئابي .. كأني أريد أن أحرق ماضيَّ الذي يطاردني .. أحرق كلَّ شيء تَعِس وفاسِد في حياتي. أحزاني تضاعَفَتْ بفعل الألم مرات لا تُحصَى.

* * *

دار في خَلَدِي الأيام التالية سؤالٌ محيِّرٌ شغلتُ نفسي به. هل كان يتوقع الرئيس المخلوع أنَّ الشابَّ الخريج من جامعة هارفارد، مارك زاكربيرج، سوف يكون سببًا لإقالته من كرسيِّه؟

والمجهود المرعب الذي كان يبذله، والثمن الفادح الذي لا يُصدَّق من دماء المواطنين، والأساليب القذرة المكشوفة التي يستخدمها، والمليارات التي تخسرها البورصة والاقتصاد يوميًّا لكي يبقى في الكرسي بضعة أشهر، وخيانة أقرب الناس إليه من أجل هذه الأشهر. ماذا كان يريد أن يفعل بهذه الأشهر؟ وماذا كان من الممكن أن يحدث لي في حبسي حينها؟

* * *

نزلتُ المعادي مصممًا أن أعيدَها إليَّ. وقفتُ تحت بيتها الذي وصفَتْ لي مكانَه ذات مرة، وصحتُ بأعلى صوتي: انزلييييييييي! أنا هُوَّ .. عاااااااااايش .. عاااااااااايش .. انزلييييييييي!

نزلتْ، هي وخطيبها خلفي من سيارة خضراء صغيرة ركنتْ. لم أكن أعرف أنها تعلَّمَت القيادة .. شكلها تغيَّر كثيرًا .. حتى قصة شعرها! مسكتْ خطيبها عن التقدُّمِ نحوي عندما عرف. نزل أخوها الأسمر الذي أراه لأول مرة. وَدِدْتُ أن أقول له أنا أعرفك جيدًا .. تقدَّمَتْ ناحيتي ببطء. صامتة وأنا أنظر لها

بغضب شديد ولوم. نزلتْ أختُها أيضًا، ووقفَتْ بجانبِ أخيها. انفجرتُ في البكاء حتى أسمعتُ المعادي كلها.

سكتت حتي هدأ صوت بكائي ثم قالت بصوت خفيض، والكل في الشارع يشاهد في فضول: "إنتَ شهيد يا حبيبي، وهاتفضل على طول شهيد جوَّا قلبي".

هل قالت حبيبي؟! .. هل قالت شهيد؟! قبل أن أفهم شيئاً كان قد مسكتْ يدَ خطيبها، وصعدا مع أخيها وأختها، ومدخل العمارة يردِّدُ صدي كلامهم معلقين علي ما حدث للتو

لم أقل لها إنني لم أبكِ عندما أُصِبتُ وغَرِقتُ في دمي، ولا عندما سُجِنت، ولم آخذ دوائي طيلة أربعة أشهر .. أنا الذي لم يتغيب عن البيت أكثر من أسبوع طيلة سنين طويلة. لم أقل لها حتى إنني لا أعرف كيف أبكي أصلًا، لكني بكيت .. من أجلها. لم أقل شيئًا. أخذتُ بعضي المتبقي، ورجعت للقرافة حيث مكاني المفروض.

* * *

عندما كتب طبيبي النفسي عنِّي في جريدة الأهرام، تكلَّم عن تحوُّلٍ دراماتيكيٍّ ما، حدث قبل الثورة وبعدها: شاب قبطي يعاني من إعاقة حياتيَّة شديدَة عاود المعالجين والأطباء (لم أذهب إلى سِواه) ووصف انفراجة منبثقة من شجاعة الثورة (لم تتغير الأعراض، وإن كانت تغيرت أشياء أخرى داخلي) قال الطبيب: "من يَثُرْ لا يكتئب" .. (كنتُ مكتئبًا طوال أيام الأحداث، وصرتُ أكثر ألمًا وحزنًا من كُلِّ ما حدث، ويحدث الآن.)

– ألو .. دكتور! أيوه أنا معاك.. واضح أنك ماتعرفش حاجة عني وبتتكلم علي واحد تاني ميت!

كله بإذنه

صَعَدَتْ إلى الباص بتؤدة تتطلَّعُ إن كان أحدٌ قد ركب بعد. وجدَت الباص ممتلئًا. جميعه من النساء باستثنائي. لكنها لم تَرَني لأني أجلس بالقرب من نهاية الباص. بدأتْ في الرقص خجلى متردِّدَةً، لكنها فكَّتْ وتشجعتْ عندما وجدتْ أن جميع الراكبات يرتدين بذلات رقص. كانت تتقدَّمُ في المَمَرِّ بين المقاعد، وهي تزداد حماسة في الرقص، لم أعرف هل أتابع بهجة رقصها أم أقطعه للاحتشام المفترض بيننا كصديقين. شرعتُ أتابع حركاتِها الرشيقةَ باسمًا مُتحرِّجًا، وهِيَ تواصل رقصها متقدمة بين المقاعد في الممر وَسْطَهم حتى وصلت إلى الأريكة ذات أربعة الكراسي في نهاية الباص. توقفتْ عن الرقص، وحدَّقَتْ في أحدِ الجالسين على الكنبة، وارتسمت على ملامح وجهها دهشةٌ بالغة. ذهبتُ ببصري تلقائيًّا إلى حيث كانت تحدِّق، ووجدتُ نسخة مطابقة تمامًا لها، تجلس على الأريكة، جانب الشباك، ترتدي بذلة رقص مثل جميع الراكبات. تبتسم، وتنظر إلى "إيمان" بهدوء وثقة. هببتُ من كرسيَّ، واتجهتُ نحوهما. هالني تطابقُ ملامحِهما حين تأكدتُ منه عن قرب! سألتُ بصوت مستنكر: "من منكما إيمان؟" فأجابتا في صوتٍ واحدٍ، وبثقة: "أنا".

كان من الممكن أن أمارس اللعبة التقليدية، بإلقاء أسئلة لا تعرفها غير "إيمان"، إيمان "الحقيقية"، لكن من الممكن بنفس الطريقة التي حدثت ونتج عنها هذا التشابه أن تُنسخ المعرفة الذاتية لإيمان أيضًا. السؤال الذي ألحَّ على ذهني، لماذا أنا متشوِّقٌ لمعرفة من هي إيمان في هذه اللحظة؟ لم تمهلني – أو تمهلاني– فرصة للتفكير، فقد قالت إحداهن "اسألنا سؤالًا لا تعرف إجابتَه غير إيمان". وافقَت الأخرى على الفور كَحَلٍّ حاسمٍ لهذه المشكلة. فكرتُ قليلًا – وأنا أداعبُ جبهتي – وقررتُ أن أرميَ الكُرَةَ في ملعبيهما. "أخبِراني – كل واحدة على حِدة – بسرٍّ لا يعرفه سوى إيمان وأنا".

اختلتْ بي كل واحدة منهما على جانب، لتجيب بنفس الكلمات المتطابقة، نفس ذات السر الذي تعرفه "إيمان". اقشعرَّ جسدي وأنا أسمع نفس الإجابة بنفس الكلمات. سألتُهما مرة أخرى بصوت مضطرب: "من منكما إيمان؟" .. قالت الأولى (التي ظننتها إيمان في البداية) أنها رأت حُلمًا في طفولتها، تمثل فيه الشيطان في صورة أبيها، وأن الأخرى تمارس نفس الحيلة، ودَعَتْنِي للتخلص منها سريعًا. أدركَتْهَا الأخرى قائلة أنها ليست

الشيطان، وأن الشيطان يتمثل حقًّا في من تدعوني للتخلص منها .. يدل معنى اسمه الأصلي "المتهِم". التفتُّ إليهما، إلى إيمان، إلى الإيمانين، أو الإيمانتين. فكرتُ قليلًا. أنا أحب إيمان. أي أمر سيء أن يكون منها اثنتان؟ ابتهجتُ للفكرة. لكنها بهجة لم تَدُمْ طويلًا؛ لأن إحداهن اشتبكت مع الأخرى. خِفْتُ على إيمان "الحقيقية" .. لم أعرف من أشجع لتنتصر، أو لمن أتألم عندما تُضرب! تذكرتُ وسط العراك الهائج في وسط الباص الذي كان خاليًا إلَّا منا نحن الثلاثة وظلام دامس يحيطه وضوء قوي كاشف داخله. صحتُ محاولًا توجيه كلامي لصاحبة بدلة الرقص: إيمان، أنتِ إيمان .. ارتمتْ فورًا على الأرض بلا حراك، بينما وقفت الأخرى باسمة. قالتْ بعد برهة صمت: يا مينا نحن نعيش الأسوأ في أحلامنا .. موت من أحب .. تلك التيمة القذرة التي عانيتُ منها أعوامًا تتجلَّى في أسوأ أشكالها. تحولتُ لابن عرس محاولًا الاختباء .. حاولت الدخول في الفتحات التي تحت الكراسي على الجانبين .. لا أريد أن أواجه ذلك .. لا أريده أبدًا. الباص فراشة زرقاء في وحمة مزعجة ببطن الكون. الباص شهاب برتقالي يموت وهو يسقط. إيمان تتأنق في زي

السائق الأزرق والقبعة الزرقاء، وتُطلق النَّفيرَ العاليَ وهي تضحك. الباص غراب أصفر يطير بخطين أسودين كما في الكارتونات، و...

* * *

أقفُ أدخِّنُ في الغرفة المغلقة، داخل مَعرِض "فيديو آرت"، تافهٍ وسخيفٍ، بموسيقى زادت رعبي بلَّة، محاولًا التفكير في طريقة للرجوع. كل ما أتذكره، هو أنني جئتُ مع صديق سيلعب مزِّيكا على هامش المعرض. كنتُ قد سألتُ رجالَ الأمن بالخارج، وقالوا لي: لا يوجد مواصلات من هنا. أول سؤال أسألُه في الأماكن اللامألوفة هو كيفية الرجوع. الحفل في الهواء الطلق بالخارج على سلم المبنى. أنا مرعوب من المكان المفتوح الذي زاده الليل القاتم، والصحراء المحيطة رهبةً، ولا أريد الذهاب للجلوس في الحمام لا في قاعة المعرض بموسيقاها المقززة، ولا أريد المكوث في الغرفة أيضًا؛ لأن بها "شنط" الطلبة، مما سيثير الريبة نحوي بالتأكيد. وجدتُ الغرفة في طوافي المتكرر ودخولي وخروجي بممرات المعرِض. باب جانبي مغلق بضرفتين، ومكتوب عليه

"ادفع" باللغة الإنجليزية. أدخِّن ناظرًا لمحتويات الغرفة .. طاولة معدنية طويلة، وكراسي، ومطبعتان صغيرتان بدائيتان، وبعض الفروخ لإعلان المعرِض. ساندوتش مغلف بـ"فويل" .. قصاصات ورق مقطَّع .. بعض اللوح في شنط بجانب الحائط. أخرجُ وأدخلُ طوال الوقت بسبب توتري. الخارج مظلمٌ وباردٌ ومخيفٌ. "محتجَز بالخارج". مرَّ هذا التعبيرُ ببالي. قال لي رجالُ الأمن إن هناك أتوبيس يخرج كل ساعة. ادفع ٢٠٠ جنيه، وارحل بعد نصف ساعة من الآن. عندما رأى الدَّهشةَ على وجهي من المبلغ، التي أكَّدَها سؤال "مافيش مواصلات تانية من هنا؟". قال "ارجع مع أي حدّ راجع". كنت مستعدًّا للسلف من أي شخص والدفع كي أرجع، لكن هذا بعد نصف ساعة! وأنا داخل الغرفة، أنظر إلى جدرانها، أستمع إلى موسيقى الحفل التي تطغى على موسيقى القاعات، فكرتُ أنه لا بد من أن أمرر الوقت بأي طريقة .. لا أعرف حتى متى؛ حتى أتعب أو حتى ينتهي اليوم! أهم شيء ألَّا أُصابَ بنوبة ذعر! .. خرجت، وطلبتُ قلمًا من شابَّةٍ ألمانيةٍ قابلتُها في بيتِ صديقي الذي جئتُ معه. ضحكتْ وقالتْ: بالتأكيد. أنا صحفية. أتتذكر؟ أخذتُ القلم وكتبت في كتاب

الزوَّار الكبير اسمَ مسرحية لشكسبير "much ado about nothing"، وكلامًا قاسيًا آخر عن المساحة الكبيرة جدًّا للمعرِض في مقابل المخرَج الفني الضئيل. أنا في حالة مزاجية سيئة، وأحتاج أن يقرف غيري أيضًا. أرجعتُ القلم، ودخلتُ الغرفة لأدخِّن، ثم خرجتُ مرة أخرى، وطلبتُ من الفتاة الألمانية – اسمها "مارلين" – القلم. لا أعرف ما المناسبة، لكني قلت لها إني متوتر من المكان المكشوف، وأريد أن أرجع الغرفة لأكتب شيئًا لتمضيةِ الوقت. أريد أن أكتبَ شيئًا عن كارل يونج. عالِم النفس الشهير. قالت أنها تستطيع أن تجيءَ معي إذا أردتُ. رجعنا معًا، وجلسنا نتكلم عن الفروق الثقافيَّة والحضاريَّة، وعن العَلاقات والحُب، وعن الشخصية والوالدين، وعَلاقة كلٍّ هذا ببعضه. جلسنا أكثر من ساعة نتحدث. في بعض الأحيان، ترسم ما تقوله على قصاصات الورق بقلمها، وأحيانًا تتكلم بتأثُّر. قلتُ شيئًا عن أمِّي، وبدأتُ بالبكاء، حتي جاء عاملٌ بالمبني، وقال أنه يجب أن يغلق الغرفة الآن. خرجنا وقد انتهي الحفل. شعرتُ بالرَّاحة. نحن في النادي اليوناني بطلعت حرب. إحدى أمنياتي كانت أن أذهب إلى النادي اليوناني. بسبب

عَلاقةٍ سابقةٍ فَشِلَتْ لأنني لا أستطيع الذهاب إليه. كنتُ سعيدًا ومنتشيًا رغم حقارة المكان، وحقارة الكذب الذي سمعته عن نظافتِه ورُقيِّه. كانت بالمكان حبيبة سابقة (غير التي انتقمتُ لنفسي منها). شعرتُ بالاستغرابِ كيف أني لا أشعر بشيءٍ ناحيتها. ممكن قليلًا من الود الذي أكنه للوجوه المألوفة .. ربما لأن عَلاقتي كانت قصيرة بها. أختها كانت موجودة أيضًا، وكانت لطيفة معي على عكس العادة. كانت ليزا الألمانية موجودةً على طاولتهم .. هي، وأختها، ورفيقها الحالي عازف الدرامز، وزميله في الفرقة، وصديقنا طالب الجامعة الأمريكية. جلستُ أنا مع أصدقائي على طاولةٍ أخرى كان موجودًا عليها أصلًا أشخاصٌ لا أعرفهم، إلَّا فتاة كانت معي في الجامعة بنت ممثلة مشهورة، كنتُ أريدُ أن أعرفها؛ لأنني كنت أراها كثيرًا في الجامعة هي وأختها التي تشبهها كثيرًا. قالت أنها تخرجت من قسم العلوم الإدارية، وأنها رسولة الفضائيين. كانت حمقاء بعض الشيء، وكذلك صديقها الذي عَرَفْتُ بعد ذلك أنه مغني "بلاك ميتال". جاءت ليزا وجلستْ بجانبي، وكانت تشاركنا الحوار. قالتْ أنها تسكن في الوجهة المقابلة للمكان في نُزُلٍ للمغتربَات.

تكلمنا جميعًا بالإنجليزية عن أشياء مثل الشامَنزميَّة (الشَّامانية)، والصوفية، والحب، ومعنى الحياة. كنتُ سعيدًا لأني أحبُّ التكلم بالإنجليزية .. أحيانًا أتعثر، وأحيانًا أنطلق، وكانت أول مرة أُقدَّم بصفتي كاتبًا. جاء في بالي أنه من حسن حظي أنه لم يعرض في حفل الجامعة الفيديو الذي تمَّ تصويري فيه دون علمي وأنا آكل وأطرطش الكاتشب على ثيابي. بعد قليلٍ، ذهبتُ للطَّاوِلةِ الأخرى، وتكلمتُ مع أختِ صديقتي السابقة. قالت أنها حزينة هذه الأيام، ثم فجأة نظرَتْ لي مباشرة في عيني، بعينين نصف مغلقتين من تأثير النَّبيذِ الأحمر، نظرةً جامدة فارغة لا تريد أن تتحرك أو تقول شيئًا. حَدَقَتَا عينيها لم تتحرَّكا لحظة. ليتها نظرتْ إليَّ باستحقار، أو بألم، أو بحزن، أو باكتئاب. لا .. الفراغ .. الفراغ ذاته .. أرَتني الهُوَّةَ كاملة! نظرتْ بالطريقة التي نلعب بها صغارًا؛ يخسر من يضحك أولًا، لكنها لم تضحك، ولذا ضحكتُ أنا بدلًا منها. ارتعبتُ من جمود النظرة، والفراغ الذي فتحَتْهُ في أحشائي. نظرة مرعبة تمكنت في آخر لحظة من حافتها. بصوتٍ ساخرٍ قلتُ: ماذا يحدثُ لكِ، وراءه ابتسامة تجفُّ على وجهي. (الإنسان: جلدٌ، وشعرٌ، وحدقتان فقط.

المخ: كتلة لحم غبية). قالتْ: أنا سكرت. حشرتُ ذاتي كلها في تأمُّلِ الجملة مستنجدًا بها. كانت سَكْرَى بالفعل: جميل الوعي الذاتي للإنسان، أن يعرف حالته الواعية. قلتُ انتقامًا منها: لديكِ – على فكرة – "بوردرلاين". لماذا نصنِّف أنفسنا .. أنا هو أنا. قالت: نعم تعريفي للمرض هو الشكوى .. إذا لم أشْكُ من شيءٍ، إذًا لستُ مريضًا .. لو اشتكيتُ من ألمٍ أو تعبٍ أو تعطُّلٍ اجتماعيٍّ إذًا هذا هو المرض. كان جميع الجالسين على الطاولة قد صمتوا في الجملة الأخيرة دون سبب، فتردَّدَ صوتي العالي بعض الشيء من تأثير زجاجتَي البيرة. نظر الجميع إليَّ وإليها. ارتبكتُ ونظرتُ إلى أختها– حبيبتي السابقة – فوجدتُها تنظر إليَّ مُغتاظَةً. كنتُ في وقتٍ سابقٍ قلتُ لها أنها مصابة بالبوردرلاين، وأعتقد أنها تركتني بسببه. كانت غاضبة لأني صنفتها كمريضة. قالت: على فكرة أنا لستُ مقتنعة بما قلتَه لي. ثم ضحكَتْ ضحكتها المهمهِمَة كأنها تهرج .. هذه وسيلتها في المواجهة. قلتُ بصوت ناعم: أنا لستُ متخصصًا، لكنها – هازًّا رأسي ناحية أختها الكبري – أشد منكِ بكثير. ثم غيرتُ الموضوع بسرعة. قلتُ في كلامي إنَّ والديَّ كانا يتوقعان أن

أصبح قسيسًا، حتي وصلتُ للثانية والعشرين. رأيتهم قد اندهشوا أكثر مما توقعتُ. أنا وأصدقائي – عند محل معروف بمصر الجديدة – أكلنا سندوتشات جمبري مقلي ومشوي؛ ونحن نستعدُّ للرَّحيل، أعطى صديقي للرجل الواقف أمام المحل، الجنيه المعدني الذي أخرجتُه من جيبي، من خلال الشباك. قال زميله: وأنا يا باشا؟ مادًّا يدَه بابتسامة. "قسِّموه مع بعضكم". بعد تجمُّد لحظة الدهشة، والتفكير اللحظي للهجوم على الزبون أو زميله، بدآ فورًا يتناوشان حول أحقيَّة كلٍّ واحد. صاح من الجانب الآخر داخل العربة: "آه دوشة وانا ويا بيه وازَّاي، طبعًا". وإزاء تداخل الأصوات، مرَّ من الناحية الأخرى في الشارع المقابل، كُتلة أطفال مكدسين تمامًا على عربة نقل، يقفون بمستويات مختلفة من الملابس، من "لباس" وأنت صاعد، يصيحون ويصفقون في نشوة، ككورس شعبي، وعربة النقل تتحرك بسرعة كبيرة الساعة الثانية صباحًا! صاح من نفس الجانب من العربة. كل هذا يحدث ونحن قريبون من شارع الحجاز. في قلب القاهرة. لابد أن نهرب في أسرع وقت من هنا!

* * *

قبل اللِّحاق في الردِّ عليها، كعادتها، أغلقتْ الاتصال. من قِصَر مُدَّة الرَّنين، يبدو دومًا أنها تتوقع أنني لن أردَّ عليها. اتصلتُ بها مُنتظرًا وقتًا طويلًا .. يرن الجرسُ حتى ردَّتْ في النهاية. قالتْ في كلماتٍ قصيرةٍ أنها تريد أن تستوضحَ الأمورَ، وكدأبِها المعتاد، تعثَّرتْ في الكلامِ خَجِلةً أو غيرَ قادرةٍ على المواجهة. فَشِلَتْ في البَوْحِ بما تريد قوله، فأبلغتني أنها ستكتب ردَّها. شجعتُها أن تكون مُستريحةً، وتتبسَّط في الحديث، فاستجمعتْ شجاعتها، وتحدَّثَتْ في توترٍ وسرعةٍ بكلماتٍ قصيرةٍ تُقْطَع فجأة بفتراتٍ من الصمتِ. تذكَّرَتْ أنها تريد أن تكون عصبيَّة، وزادتْ من حِدَّة عصبيتها، فامتصصتُها بهدوئي. كانت مكالمةً متوترةً، من جانبها، متقطعة الكلمات. قلتُ لها أني أتمنَّى لها أن يتحقق حلمها بالعمل مع الممثل الوسيم المشهور كما زارها في الليل. وقلتُ لها أيضًا بفخر: ستصدر لي قريبًا ثلاثية روائية تحت اسم "الحب .. يا روحي عليه!" أُولَاها رواية "الحب كده" عن دار (الفم) حيث تدور أحداث الرواية حول راقصةٍ شريفةٍ في شارع "كلوت بك" إبَّان أربعينيات القرن الماضي، وحين تركب البطلة حصانًا في نزلة السمان، يسقط غشاءُ بَكارتِها ويضيع؛ وتحب بعدها شابًّا

متدينًا، وتصمِّم قبل الزواج به على البحث عن الغشاء، وتتوالى الأحداث وتتشابك. والرواية الثانية ستصدر لي عن دار (إل. إم) تحت عنوان: "كله بالحب"، عن طفل يشاهد جريمة قتل وهو عائد من المدرسة القريبة من بيته، حيث يرى في الشُّرفة امرأةً تطعنُ رجلًا في رقبته من الخلف، فيفقد القدرةَ على الكلام، وبعد ثلاث عشرة سنة من الصمت، وهو جالس مع أسرته على مائدة الإفطار، بعد أن أصبح رجلًا، نظر إلى والديه وإخوته ثم قال: "الناس نوعين .. أغبيا و أغبيا .."، ثم تتوالى الأحداث بعد ذلك وتتشابك. وفيها أيضًا أنَّ الشاب سيحب فتاة، ولكونه عاجزًا عن التعبير عن حبِّه لها، يشغل لها أغنية "أنا بحبك أكتر"، لكنها تتجاهله، وتمشي في برود. وعندما يرجع له النطقُ ويبحث عنها، سيكتشف أنها كانت صمَّاء، وكانت تحبه وتنتظره ليتكلم معها كي تكتب له أنها صمَّاء. أما الجزء الثالث فهو رواية "ياما قالوا" عن دار "شماليَّات"، حيث تدور الرواية حول شابٍّ يُنشئ نقابةً في بداية القرن الحادي والعشرين يسميها "نقابة السفسطائيين" مع بعض أصدقائه من أجل اللهو البريء، لكن يتطور الأمر حين يدخل شخصٌ غريبٌ يتضح أنه قاتل متسلسل للعذراوات،

وعندما يكتشف أنه لا توجد فتاة عذراء في النقابة ينتقل للشباب، ويقتل ثلاثة منهم في محاولةٍ كشفٍ محمومةٍ لـ (لِمَ لا يوجد بالنقابة عذراوات؟) حتى تفاجئه إحدى الفتيات "إنت دقة قديمة!"، في نهر الدم يتصدَّى له "يزيد"، الشاب الذي بَقِيَ ثلاثة عشر عامًا صامتًا، وعندما رجعت له قدرة الكلام، ترك الجامعة وأصبح مغني "ليد" في فرقة بلاك ميتال، وأطلق شعره، ولبس السواد، وكان أحد رواد النقابة، لكنَّ القاتل يكشف حقيقته ويقول له أمام الجميع، يا ابن الرقاصة، مشيرًا لمهنة جدته التي كانت تعمل راقصة في شارع كلوت بك، فيقتله، ويدخل الزنزانة مع خنوفة البلطجي، وتتوالى الأحداث وتتشابك ..

* * *

أجلس في مقهى ومطعم فخم وهادئ. تدخل إيمان في توتر وعجل. تنظر حولها مرارًا وهي تلبس نظارة سوداء كبيرة. تجلس صامتة أمامي لا تتكلم. تُخرج شيئًا ما من حقيبتها لا أراه بوضوح. أنتظر أن تتكلم. لا أعرف كيف جعلتْني أشعر بأنني من عليه أن يتكلم. فتحتُ فمي محاولًا قول شيء ما. فَشِلْتُ، لم

أجِدْ شيئًا، فأغلقتُ فمي من جديد. مرَّتْ فترةُ صمتٍ، ورقبةُ إيمان تدور في توتر. قالت أخيرًا: هذا هو المفتاح كما اتفقنا يا مينا .. أرجوك لا تخذلني .. الجُنْدَبُ مازال محبوسًا. وقبل أن أفتح فمي مستفسرًا، هبَّتْ واقفةً، وسارعتْ بالانصراف. أخذتُ أتأمَّل المفتاح الصدئ في يدي، محاولًا تذكر ما يجب عليَّ فعلُه. من حوارها القصير، خمنتُ أنه دار بيننا اتفاقٌ ما، وأنَّ عليَّ أن أستخدمَ هذا المفتاحَ في غرضٍ ما. أجهدتْني محاولاتُ التَّفكير، فطلبتُ الحِسَابَ من أقربِ جرسون لطاولتي. حاولتُ جمعَ شتات نفسي وأنا أسير في الشارع، أحاول أن أجمِّع الخيوط في ذهني. ١- هناك أشخاص مجهولون يطاردوننا أنا وإيمان.٢- إيمان سلمتني مفتاحًا. مفتاح غرفة في فندق على الأرجح. ٣- يبدو أن هذه الغرفة فيها الشيء أو الشخص (أو الجُنْدَب!) الذي يريده الذين يسعون وراءنا. ٤- من هو، أو ما هو "الجُنْدَب؟". هل هو شخص معروف بهذا الاسم أم هو حشرة الجُنْدَب ذاته؟ ٥- أين هو هذا الفندق؟! يبدو أني أعرفه، أو إيمان تعتقد أني أعرفه. حسنًا. المفتاح ليس مكتوبًا عليه شيء، فقط مفتاح صدئ قديم. أحتاج أن أعرف بعض الا...

* * *

أقرأ قصيدة لي بالجامعة. وهي ليست جامعتي. توقفَتْ هي مع من وقف لترى هذه المناسبة الشعرية. بالطبع استغربَتْ من هذا "الشِّعْر" الذي بلا قافية ولا يسير على وتيرةٍ واحدةٍ مثل الأغاني. لكن الجميع، بمن فيهم أنا، استغربنا أيضًا! أن يكون حولها طاقة من النور .. هذا مقبول وجائز، لكن كيف هذا الضوء والإشعاع والشمس في الوسط ونحن في عز الظهر؟! رفع شخصٌ بالصفِّ الأول قلمَه – يبدو أنه ناقِد- واستفسر عن شعرية هذا الإشعاع، وهل له عَلاقة بالميتافيزيقا الضوئيَّة عند "إيليتيس" .. أضاف أنه لا يصح عرضُه هكذا، بل لا بُدَّ من مقدمات ذات استدلالات منطقية تقدِّم هذا العمل الفني الرفيع في أُبَّهَة قالب الرومانتيكية الحديثة! ذهب من ذهب، وأتى من أتى، ورحل بالنُّصب من رحل. قالت لي كلمة ما. كنتُ أعرف أنها الكلمة الأولى، لكني لم أسمعها جيدًا. ثم وجدتُ حشدًا كبيرًا حولي يقول: بما أنك شاعر، ألق علينا ممَّا تحفظ. رددتُ بخجل حقيقي: لكني لا أجيد الحفظ. ألحوا عليَّ: لا تكن خجولًا، أنشِدْ علينا شيئًا من القصائد المشهورة. قالوا لي: إذًا قل لنا قطعة

مـن أعمالـك. ابتسـمتُ، ودارَتْ خلـف ابتسـامتِي أفكـارٌ كثـيرة. وجـدتُ نفسـي أتحـوَّلُ لقُـرَدَاتِي، وَمِـنْ حـولي نـداءَات بـ"عجين الفلاحة" و"نوم العازب" و"رقصة الهبلة". وبعدها وجدتُ نفسي مطربًـا ألـبس بذلـة بلـون الكنبـة المشـجرة الـتي أجلـس عليهـا، ويطلبون مني أن أغنيَ لهم "حتة من الألبون الجديد". ابتسمتُ، ومن كثرة خجلي، ذبتُ، ورجعتُ إلى الفصل في مدرستي، والزائر يشجعني. إلحاح شديد، ودَفْع من زملائي وأصدقائي لألقي أيًّا مـن قصـائدي أمـام الجميـع، الطـلاب والمـدير والمـدرس والزائـر. وقفتُ بصعوبة، وقلتُ الشيءَ الوحيدَ الذي جال بذاكرتي :"لو يسـألوكي عليـه، قـولي دا واد قفـا، كـبر ونمـا بـين إيديـه، واتعلـم التفتفة". جملة كنتُ قد قرأتها الليلة الماضية في كتابٍ عن القراءة، حتى إن الزائر – ويبدو أنه ذو شأن كبير– بدت عليه خيبة أمل وغضـب بعـد كـل هـذا الإلحـاح والتشـجيع ثم أردف: العبثية هـي ...

* * *

وجَّهوني أن أتعاملَ مع الـ"بربل بيبول"، وقالوا لي أن أكون حذرًا. كأني داخلٌ فيلمًا أبيض وأسود، لكنَّ شيئًا ما حدث للونين خلال التحميض فجعلهما أغمق. بدؤوا يشتكون من الـ"بربل بيبول" .. يتذمَّرون من الـ"بربل بيبول" ويُلمِّحون بتلميحات ساخرة وغاضبة عن "البربل بيبول". وعندما دخلتُ، رأيتُ مجموعةً من الفتياتِ المحجَّباتِ اللائي يرتدين البربل. نحن في مكانٍ مخصَّصٍ للأطفال، وهُنَّ يتعاملن معنا على هذا المنوال، يمسكون بيبرونات وفوط صدر ومناديل تواليت بيضاء للتنظيف. يتفرجن علينا، ويراقبننا، مع امتعاضي الشديد، ومحاولاتي للاندماج مع ضحك الآخرين المتواصل حتى لا ألفت الأنظار. ثم جاءتْ تورتة الحفل: ثديان بالألوان الطبيعية من الكريمة المخفوقة والفراولة والبيكنباودر والبيض والدقيق والسكر. بزاز كاملة بحلماتٍ دائريَّةٍ حمراء منتصبة. ثبتت نظرة صدمة في أعينهنَّ المتَّسعة المكحَّلة. صرفن جميع الواقفين (الذين تجمعوا لينظروا من وراء الزجاج بالخارج)، وعندما اقتربن منها، انفجرت في وجوههن انفجارًا مدويًا، وسمعتُ صوتًا يصيح في حماسة: الحرية ثمنها حلوى!

* * *

أرقص معها في حفلٍ على موسيقى لاتينية. هي مليئة مكتنزة، لكن بحرفيَّةٍ شديدة. ترتدي نظارة سوداء مثلهم، وتلبس قمصانًا واسعة مشمرة الأكمام، تخبئ بهم كنوزها الثمينة. تلك التي يقولون على مثيلاتها: نتعة! لم أسألها عن اسمِها. كان خيالي الخصب "الأبِيح" يصوِّرُها في كلِّ الأوضاع المتخيَّلة واللامتخيَّلة. تحتفظ برشاقةٍ ما رغم امتلاء جسدها كأنثى تامَّة. متفجِّرة حتى تشعر أنها تحجِّم نفسها بصعوبة. أنوثة زائدة. تدخن سجائرها كمحترفة. تَنْفُثُ الدُّخَان بعيدًا. لا أعلم إن كانت لاحظَتْ شهوتي طافحةً بعيني. فقط نتبادل كلماتٍ مقتضَبةً. تقفز في مخيلتي بكامل منحنياتِها وتقوساتِها المتوحِّشة، وتنفرط أعصابي في محاولةٍ فاشلةٍ لإيقاف السَّائل السَّاخن المتدفق. أحاول تصوُّرَ نفسي أرافقها: كتبرير عاطفي أو أخلاقي. لكن اختلافات شخصياتنا الحادة تَحُول دون إكمال تخيُّلي. أقرب إلى – كملامحها السوقية – المثيرة جنسيًّا. شخصيتها قوية، وعادةً ما تكتسحُني خلال الكلمات القليلة المتبادَلة كشابٍّ يجيءُ من طبقة وُسطى بلا خبراتٍ حقيقيةٍ بالحياة. يظهر من خلال

تحركاتها ترقُّبٌ لشخص ما منتظر. عَلاقة محتملة. دفعتُها من ذراعيها، ورميتُها على الأرض، أول فتحها للباب. في هذا المنزل الصغير، أعرف أن والديها ليسا بالبيت، بل منفصلان، وكل شخص مشغول بأمره، وأمها عند خالتها. قاومَتْ، لكنَّ الشَّبَقَ في عينيها المتَّسعتين كان واضحًا ولامعًا. أنزلتُ سروالَها الداخلي، وفتحتُ رجليها عَنوةً، وهي مازالتْ تقاوم. أعرف ما يمنعُها من الاستسلام. كان ذلك يزيد من عنفي، وسعاري الجنسي. ضربتْني بالقلم. ارتبكتُ بشدَّة. كنتُ عنيفًا معَها. عضَّتني. دخلتُها رغمًا عنها، وهي تدفعُني في إصرار من ذراعيَّ وأكتافي ورقبتي. أهكها وأسيطر عليها بضراوةٍ، وأنا راكبٌ فوقها. تتلفَّتُ في توسُّلٍ أقرب للضراعة والشَّبق، وأنا مستمرٌّ في تعذيبها، وأصيح: ليس بالشخصية وحدها يحيا الإنسان! ضاجعتُها في الصباح مرة أخرى، أول شفق استيقاظي. قالت أنها تأخرت عن العمل، ولا تريد الآن. كأني لم أسمعها، ركبتُها جانبيًّا، وبركتُ عليها. تنفُّسي السريع الحارُّ هيَّجَها ففرشَحَتْ، وأخذَتْ تتنفَّسُ مثلي في سرعة. وكعادتِها، نظرت بعيدًا، ووجهها يأخذ في الحمرة. كان لونُ فَخِذيها الممتلئتين يثيرني بشدة، وشعر عانتها يظلل كلون فحم

خشن. تأوَّهَتْ قليلًا، لكنَّ العملية انتهت بسرعة. أمسكتُ حلمتيها النافرتين طوال الوقت وشددتُهما. أخذَتْ نفسًا عميقًا، وبقينا على هذا الوضع الجانبي. جُسْتُ على شعرها، ثم نزعتُ قضيبي بهدوء من داخلها. قبَّلتُها على خدِّها سريعًا، وقامت هي على الفور من السرير لتستحمَّ وتذهبَ لعملِها، وأنا أيضًا قد تأخَّرتُ على الجامعة. عندما دخلتُ، وجدتُ ميشيل فوكو يشرح التفكيكية بدلاً من أن يتكلم علي المستشفيات والسجون. كان عصبيًا جدًّا لأنَّ الطلَّاب لا يفهمون شيئًا، فَهُمْ طلَّاب هندسة معي في نفس القسم. نظرتُ إلى لوح الكتابة، ووجدتُ كلامًا قرأته قبل ذلك وفيه شيء لم أفهمه. وجدتُها فرصةً كي أسأله، فرفعتُ يدي، وحاولتُ أن أسأله عن عَلاقة المشروع التفكيكي بعلمانية أو دينية الدولة، لكنه كان جالسًا بعصبية لا يريد أن يسمح لي بالسؤال. بجانبي طوال الوقت صديقي سعد، سعيدًا ومستمتعًا بسماع فوكو شخصيًّا. ونحن خارجان، سألت سعد ما العلاقة بين التفكيكية والعلمانية؟ قال: انظر لنموذج دخول التفكيكية أمريكا الجنوبية. سألته: هل تقصد دخولها في الهيكلية؟

قال: أقصد الاثنين، بطريقة "فورمال" في هيكلية الدولة، وفي استلهام فكري في طريقة الحكم. وسلَّم عليَّ ثم مشى.

* * *

طلبوا مني صورةً. هؤلاء الذين حذَّروني من البيربل بيبول ويلبسون نظارات شمس سوداء. ذهبتُ إلى المصوِّر فأعطاني الواقفُ الصورةَ الفوريَّةَ بوجهٍ آخر. ابتسمتُ بأدبٍ للعامل في معمل التصوير، وقلت إنه أخطأ في التقاط الصورة. نظر في دهشة مصحوبة بضحكة قصيرة وقال إنها صورتي. توتَّرتُ ونظرتُ خلفي إلى المرآة الكبيرة الموضوعة بحجم منتصف الحائط، فوجدتُ شخصًا غريبًا ينظر إليَّ في المرآة. خرجتُ من المحل في فزع، وصرخت إلى أمي فور دخولي إلى المنزل. خرجَتْ من المطبخ مخضوضة. قالت أن هذا هو وجهي طيلة حياتي. أختي أيضًا. صرختُ إلى أبي في غرفته، فقال بعد فترةِ صمتٍ طويلةٍ أني فقدت عقلي. بحثتُ في كل صوري فوجدتني بهذا الوجه الغريب. نفس ملابسي، وطولي، وجسمي، ووقفاتي، والأشخاص المبتسمين من حولي. كدتُ أجن. عائلتي ملمومة في حجرتي.

أقسم أني أنا أنا ولست هذا الشخص. رباه من هذا الشخص الذي أكونه الآن! حاولت الدُّخول على الفيسبوك، لكنَّ كلمة السر كانت غير مقبولة. فتحَتْ أختي حسابها لتريني صوري الموسوم بها. وجدتُني بنفس الوجه الغريب. العيد الماضي، حفل رأس السنة، خروجة بينوس، خِطبة صديقي أيمن. كلمته دون تفكير فيما سأقول. بلعتُ ريقي .. بدأت الكلام متهتهًا: إنتا .. إنتا شفتني امبارح .. أقصد إحنا اتقابلنا إمبارح .. أقصد إحنا كنا مع بعض امبارح. قابلني دلوقتي أرجوك. خرجتُ من البيت إلى الشارع. أعبر "الجنينة" أمام بيتنا ركضًا. لا أعرف لماذا أجري. أوقفتُ أول تاكسي، وقلت له مكدونالدز نادي الشمس. دون تفكير مني لماذا أذهب إلى هناك، مع إن موعدي مع أيمن بعد ساعة في قهوة كتكوت بروكسي. نزلتُ من التاكسي، دفعتُ له الأجرة. نظرتُ حولي لا أعرف ماذا أفعل. أخرجتُ كارنيه النادي، فوجدتُ نفس صورة الشخص الذي لا أعرفه، والملصوق على وجهي. أجهشتُ في البكاء، وارتميتُ على الرصيف. جاء شابَّان ووقفا حولي يسألانني ماذا حدث، وعمَّا إذا كنت أحتاج شيئًا. لم أعرف أن أردَّ بشيء. هدأتُ قليلًا وشكرتُهما بعد أن

طبطبا عليَّ وعرضا أن يوصلاني إلى أي منطقة أريد. أوصلاني لشارع الحجاز خلف العمارات، ومن هناك أخذت ميني- باص ذاهبًا إلى روكسي. وأنا في الميني-باص، جاءني السؤال: هل لو صادفني شخصٌ أعرفه، فهل سيعرفني. لكن سريعًا ما طردتُ السؤال من رأسي؛ لأن عائلتي عرفتني على الفور. جلستُ في القهوة. شربتُ كركديه بارد لكي أهدئ أعصابي. جاء أيمن متأخرًا كعادته ساعة إلَّا ربعًا. وقت اقترابه، لاحظتُ شيئًا مألوفًا لم أعرفه بادئَ الأمر. مع اقترابه أكثر، شاهدتُ وجهي على جسده! قُمْتُ من كرسيَّ وصحتُ: أيمن دا وشِّي! أكمل مسيرَه نحو الكرسي بجانب كرسيَّ، وبدأ يجلس: وشَّك إيه؟ نظرتُ متسمرًا إلى وجهي. ينظر لي كأني أنظر إلى مرآة، لكنه لأول مرة لا يعكس ما بداخلي، ولا أستطيع التحكم به. قلت: أيمن إنت عملت إيه في وشِّي. نظر مستغربًا وقال: مالك واقف ما تقعد يا ابني، ووشَّك إيه مش فاهم حاجة، مانتا وشَّك سليم أهو! صرختُ فيه: عملت إيه في وشِّي يا ابن الكلب. وخرجتُ أجري، وفي ذهني أن أرجع إلى البيت. لا أعرف لماذا تحديدًا. وحين ركبتُ التاكسي، عرفت أنني كنتُ أريد أن أشتكي لأبي

لكي يجلب لي وجهي من أيمن. وشعرتُ بسخافة تفكيري وغبائي أني تركته دون أن أفهم منه، أو آخذ منه وجهي، فماذا سيفعل لي أبي الذي يعتبرني أصلًا مخبولًا الآن؟! أشرتُ للسائق أن يقف، وقلتُ له إني أريد أن أنزل. بدا عليه الامتعاض والغضب، وقال العالم الوسخة التي تتلبون على السائقين. لم أغضب. لو كان في وقت عادي لكنت سَبَبْتُ له الدين. نزلت فنزل ورائي قائلًا أنه يريد خمسة جنيهات، رغم أننا لم نتحرك سوى أربعة أمتار. شخرت شخرة سريعة، وقلت له كسّ امَّك. وجريتُ أعبر المجرى الزرعي منتصف الشارع راجعًا إلى القهوة حيث وجدتُ أيمن يشرع في ركوب سيارته. جريتُ نحوه، وسحبتُه من خلفه، وبدأتُ أضرب فيه، لكني توقفتُ فورًا خوفًا على وجهي- وجهه. كان غاضبًا جدًّا وبدأ يضرب فيَّ بعنف. كان مفزعًا أن أرى وجهي غاضبًا إلى هذا الحدِّ، وملامحي بهذه القسوة. وقعت على الأرض بجانب سيارته أمام الرصيف، وبدأ يغشى عينيَّ شيءٌ ما مسحتُه بظهر كفي، وأيمن يضرب فيَّ، فوجدتُه دمًا. صرخت جزعًا لأيمن أني أموت. توقَّفَ أخيرًا، وبصق عليَّ، وركب سيارته، وانطلق، خارجًا من عجلات سيارته صرير غاضب. جاء عامل

القهوة ببرود، وقال للناس المتجمِّعة: الواد شتم الراجل اللي مشى وجرى ورجع تاني. الظاهر جاب حديدة وكان عايز يضربه لكن الواد دغدغه. شيلوه بقى نحطله بن ولا حاجة. كنت أريد أن أشتمه، وأقول له كسّ امَّك يا عاصم، لكن كان يُغشى على، ولا أقدر على النطق. بدأتُ أشعر بدوار شديد، ووجع في رأسي مرعب. نادوا أحد الأشخاص معه سيارة لينقلني لمستشفى هليوبوليس، بعد أن رأوا أن الطريق ناحية العباسية مزدحم، ولن أقدر أن أصل إلى مستشفي الهلال إلَّا بعد فترة طويلة، وهذا خطر بسبب نزفي الشديد من خلف رأسي. وأنا راكب سيارته بين الحياة والموت أفكر في أمي وأبي وأختي وأصدقائي، نظرت إلى المرآة الخلفية. وجهي ملطخ بالدم .. وجهي أنا. تمتمت في سري، وأغمضتُ عينيَّ، ونمتُ.

* * *

واقفًا في شارع بمدينة الرحاب، تذكرتُ جملةً بسِفر مراثي أرميا تقول: "نحن أذنبنا وعصينا. أنت لم تغفر". انفجرتُ في ضحك متواصل، وأنا أردِّدها في سرّي. بعدها أحسستُ بمرارة في

حلقي كالعلقم. أردِّد الجملة، وأنفجر ضاحكًا، كأني أكتشف أكثر في كلِّ مرَّةٍ جوهرَها المضحك. الضاحك. المفارق. الهازل. المهزلة. بعدها وجدتُ لحافيَ الدنيا والآخرة قد كُشفا، وبَقِيتُ في الهواء الطلق عُريانًا وحدي بردانًا، آكل لأسمن، ربما أدفأ أو أتحول للحاف أنا نفسي. لكن لا ينفع أي شئ. جربتُ كلَّ شيء في الدنيا: الكتابة، والكراهية، والتذلل، والبوح، والاعتراف، والتأمل الذاتي، والشتيمة علنًا، وكل شيء. وحدها المرارة في حلقي هي التي تبقى. أقف في شارع بمدينة الرحاب أمام الرصيف، لأن الله ركب سيارته بعد أن أنزلني منها ومشى، رافعًا صوت الكاسيت بتراتيل فرحة بالمجد، وأنا واقف وسط طين المياه القذرة بالشارع، والسيارات تمرُّ لتطرطشها عليَّ. كل طرطشة أردِّد الجملة في سري وأضحك. أخرج قلمًا من جيبي، وأكتبها على كفي اليُسرى: "نحن أذنبنا وعصينا. أنت لم تغفر". وقتها توقف ضحكي، ودسستُ يدي اليسري العرقانة في جيب بنطالي الجينز، وأنا أكافح حتي لا أُرِيَ دموعي لله. يئست، وصرفتُ النظر عن الأمر.

* * *

قلتُ لإيمان: الجُنْدَبُ لا يزالُ محبوسًا، وأنا أعاني من مرور الزمن، وعدم فهم أني أكبر حقًّا .. والأسوأ أن أجدَ نفسي في هذا العالم الممتلئ بالحقائق القاسية، والشيخوخة، والموت، كل هذا بعد – أو قبل أو وسط – موت كل من نحب. وليس هذا كله وحده فقط، بل هناك باقة هديَّة من الألم، والمرض، والخوف، والقلق، والعجز، والملل، والغضب، واليأس، والخنوع، والقهر، واليأس. قالت بعد صمتٍ طويلٍ: "صدقني، إن البراءة حتمًا ستأخذ بثأرها من كل ذلك" .. وهزَّتْ رأسَها في إيمانٍ عميقٍ وأسًى. الجملة كانت شاعريَّةً تمامًا، لكنِّي لم أفهمها. قالت: "إنني لا أخافُ الموت، لكنني أخاف أن أملَّ منه". بدتْ لي الجملةُ غبيَّة .. لم أُرد أن أقولَ لها هَذا. غمغمتُ بـ "لا .. لا" كأنني أتأسَّف أننا سنموت، ولا يوجد شيء بيدي أقدِّمُه لها، ثم حكيتُ لها عن مغامراتي: في الصَّيفِ ذهبتُ لسوريا، وفي دمشق رأيتُ وأنا أسيرُ في الشَّارع بعد أن أكلتُ الصنوبر في الأرز بجانب اللحم، فتاةً تسير في فستانٍ صيفيٍّ خفيفٍ في السَّادسة عشرة من عمرها بصدرٍ كبيرٍ، وملامح أموميّة مستقبليّة، فتزوجتُها. المرأة الفرنسية ذات الشعر البني الفاتح، والمزاج المتقلب، عشنا أقسى

ما في الحب .. انفصلنا وباريس كانت أضيق من أنفاسِنا، بعد أن تركنا في كلِّ ركنٍ ومقهى ذكرياتِنا الحاميةَ الملتهِبة، الذِّكرى وجعٌ دائِـم، مـؤلم، مميـت. انتحـرَتْ. الإيطاليـة ذات الشـعر الأسـود الطويل، ولون البشرة الأبيض الصافي كاللبن، وجسد كالتماثيل لا يوجد به خطأ واحد في مقاييسه .. أحببتُ عينيها أكثر من أي شيءٍ في العالم. تزوجنا في كاتدرائيّة كاثوليكية كبيرة .. بقينا معًا عشر سنوات بدون أطفال. أحبَّتْ واحدًا غيري. أعرف، سأتزوج هندية وسوف تطيِّب كلَّ جروحي وأوجاعي من حيواتي السابقة .. أعلم هذا. قلتُ لإيمان: شيئان شعرتُ بهما، ولم أقلهما لأحدٍ حتى لا أُتَّهَم بالخبل. الأول أني أشعر بشعيرات ذقني وهي تنبت خلال جلد وجهي في الليل أو النهار. مع تكرارها تأكدتُ من صحة إحساسي هذا، وقبل ذلك كنت أشعر بفروة رأسي وهي تنمو. الآخر، كان قبل عيد ميلادي الثاني والعشرين بأسبوع تقريبًا، شعرت بمخي وهو يكبر، تلافيف مخي وهي تتزايد وتتشابك. أثناء حديثي، تحولتْ إيمان إلى طفلةٍ، واتَّجَهَتْ تخطو بجانب السور الحديدي المؤدِّي إلى السلم الهابط لأسفل، تحاول أن تصل بذراعِها إلى حافته لتمسك بها. رأيتُها تتشعبط على

حافة السور، آخذةً في البكاء، ثم سقطتْ. وقفتُ ألطم وأصيح، واخترعْتُ وسيلة لأرجع في الزمن، أقفز على السلالم، وأُنقذ أمي من الموت، وأُرجع قلبي مكانه في صدري، وأركب باصًا في محطة بعيدة، اكتشفت حين صعدته أن جميع ركابه من النساء باستثنائي ..

* * *

لدهشتي، وجدتُ تاكسي قديمًا أبيض وأسود ماركة ١٢٨ يمشي بجانبي في بطء. والسائق يزمِّر بطريقة متقطعة خفيفة. كان يلبس البيريه، ولا تظهر عيناه من وراء النظارة السوداء. همس لي بصوت خفيض في سرعة "اركب!". ركبت بجانبه، وسار بنا حتى وصلنا إلى صلاح سالم أمام قصر البارون. توقفنا في الناحية الخلفية للقصر أمام منطقةٍ من السياج بها فتحة كبيرة تمرِّرُ شخصًا زاحفًا. قال لي "انزل!"، ورحل سريعًا، وعجلاتُ التاكسي الرفيعة تصرُّ .. نزلت تحت السور وزحفتُ على ركبتيَّ، حتي قطعتُ المنطقةَ الرمليةً ووصلتُ إلى الناحية الخلفية للقصر. القصر يبدو مفزعًا في الليل. وقفتُ أمام الباب الخشبي. كان مواربًا كما

توقعتُ. دفعتُه، ودخلتُ في توجُّس وأنا خائف مُسبقًا ممَّا أنا مقبلٌ عليه. سِرتُ حتى دلفتُ للبهو الرئيسي للقصر. جربت المفتاح في الغرف المغلقة الموجودة. كان المفتاح أصغرَ كثيرًا من أقفال تلك الأبواب. وقفتُ يائسًا لا أعرف ماذا أفعل في هذه اللحظة. تذكرتُ أن هناك دورًا علويًّا للقصر. صعدتُ على السلالم؛ وعلى الجانب البعيد للممرِّ الضيِّق، وجدتُ بابًا خشبيًّا صغيرًا. شعرتُ بأن هذا هو الباب المنشود. جربتُ نحوه، ووضعتُ المفتاح في الثَّقب. كان متطابقًا معه تمامًا! أدرتُ المفتاح، وفُتِحَ البابُ بسهولة! دفعتُه إلى آخر مداه، وأنا أنظر إلى ما بداخل الغرفة في ذهول.

دباديب كثيرة جدًّا من مختلف الأحجام والأنواع تملأ الغرفة، متراصة بجانب بعضها البعض، تنظر لي بعيونها الميتة اللامعة، وفي وسط الغرفة كاسيت عتيق وشريط قديم. دخلتُ الغرفة، ومسكتُ الشريط. كان مكتوبًا عليه بخطٍّ ركيكٍ "عبد الحليم" بقلم فلوماستر أسود. وضعتُه في الكاسيت، وضغطت على زرِّ التشغيل. خرج صوت عبد الحليم يغني: *عدَّى النهار .. و المغربية جايَّة / تتخفي ورا ضهر الشجر / وعشان نتوه في*

السكة / شالِت من ليالينا القمر / وبلدنا ع الترعة بتغسل شعرها / جانا نهار مقدرش يدفع مهرها ..

سمعتُ الباب خلفي يغلق بخفة .. التفتُّ على الفور فَزِعًا. وجدتُ إيمان تتقدَّم نحوي بوجهٍ باسمٍ، وخطواتٍ رشيقةٍ واثقةٍ .. أطفَأَت الكاسيت. قالتْ بصوتٍ عَميق لا-زمني: شكرًا يا مينا. الجُنْدَب يلهو الآن حرًّا في شوارع القاهرة. *

.

* هذه القصة كُتِبَت بالاشتراك مع الكاتبة إيمان عبد الرحيم في الجزء الأول والأخير منها.

ألفة أكثر غرٌبة

((تاريخُ الحُب، قلبُ الحُب، مُقسَّمٌ بين الـ "مَن" والـ "مَا"))

جاك دريدا

١

احتجْتُ إلى تصميم شعارٍ للشركة الوليدَة. لِمَنْ ألتجئ غيرها؟ ونحن جالسان في الكافيه، طلبتُ منها تصميمَ الشعار. قامت فورًا .. نقلتْ كرسيَّها إلى الناحية المقابلة من الطاولة. تكلَّمَتْ شارحةً: "سأعاملك كالزبون حتى يكون العملُ احترافيًّا". كانت متحمِّسةً لتريَني كيف تعمل، وكم هو جيد عملها. أخرجَتْ ورقةً وقلمًا. بدأت تسألني. لهجة جعلتها رسمية محايدة عن طبيعة العمل وتفاصيله. فجأة تحوَّلَتْ. ابتسمتُ، وجاريتُها في اللعبة، لكني شعرتُ سريعًا ببرودة المسافة بيني وبينها، كأني لا أعرفها. هل حقًّا أعرفها؟ شعرتُ بالاختناق، سريعًا ما أستسلم. قلتُ لها: "أنتِ تعرفين" – "أجب على أسئلتي بدقة". نبرة صوتها الحماسية تدفعني بعيدًا. الرعب والبرودة يجتاحان جسمي. حاولت أن أتواصل معها، أن أصل إليها .. لامستُ يدها. سحبَتْها بسرعة، وقالت: "عيب كده يا أستاذ". انتفضتُ

وأنا أرانا جالسَيْن معًا في الكافيه خلف الواجهة الزجاجية مباشرة كغرباء .. كبشر يلتقون صدفة .. كشخصين مضطرين لقضاء برهةٍ معًا لغرضٍ غير شخصي يتخطاهما، متحلِّقَين حول هدف يقع خارجهما. شخصان لا يبتغي أحدُهما من الآخر إلَّا ما سيقدمه، وهو – بالأصح – أهم من الآخر نفسه. أخرجَت اللابتوب، وخاطبَتْني بـ "حضرتك". أرتني نماذج، لم أر منها شيئًا، من أعمالها السابقة. حاولتُ مرة أخرى. "حبيبتي، لا أريد أن أستمرَّ في هذا". نظرتْ في حنان لِلَحظةٍ ثم رجعتْ .. "ستستلم ثلاثة نماذج للشعار عليك أن تختار منها نموذجًا .. لك ثلاث فرص للتعديل، ثم تستلم النسخة النهائية على أسطوانة مدمجة، معها شرح فكرته، وكيفية استخدامه في التطبيقات من مساحات ومسافات وألوان وخطوط للوصول إلى أفضل النتائج، بالإضافة إلى الإصدارات المكتبية المصاحبة له، ورق للعقود، والأوراق الرسمية، والإيصالات، والظروف، والكروت. أيضًا الشِّعار بالألوان السلبية للخلفيات الداكنة، وقائمة بالمقاييس لأحجام الإعلانات، واليافطات، والمطبوعات المختلفة".

استمرَّتْ في اللعبة حتى يوم الثلاثاء، لا تكلمني على الموبايل، إلَّا في متطلبات الصفقة. فقط تضيف في مرح: إنت فاكرني بالعب بِدِيلي مع الزباين زيك يا أستاذ. أردتُ أن أصرخ .. أن تتوقف لحظة وتكف عن هذا كله.

قابلَتْني في نفس الكافيه. أرَتْني الشِّعار. عمل رائع فعلًا! قدَّمَت العرضَ في لهجةٍ محايدةٍ تنتمي كليةً إلى عالم الأعمال الاحترافي. كنت أستمع بربع اهتمام منتظرًا اللحظة .. انتهتْ من تقديمها بابتسامةٍ واسعةٍ، منتظرةً ردة فعلي على الشعار النهائي. أخرجتُ المبلغ كاملًا من جيبي، ووضعتُه على الطاولة ثم خرجت. لم أنس أن أغلق هاتفي بالطبع.

٢

"كانت خبيثة أن تدع السمك كلَّه ليأكله زوجُها. ضحَّتْ بمتعة السمك في صمتٍ وخبث. *أنت تحتاجه أكثر* حبيبي. بعد أكلة السمك، يومها، وقبل اللقاء المضحَّى من أجله بوجبةٍ لذيذةٍ غنيةٍ بالفسفور في عِزِّ الشباب، دون ضرورةٍ حقيقيةٍ إلَّا الرغبة في بلوغ قمة الأداء، ومن ثم قمة المتعة. اشتهى بنت جيرانهم الجدد التي – رغم صِغر سنها – كان جمالها من الذي يخرب البيوت. صدرها علامة اتِّهام مشهرة باستمرار لرجولته .. رجلاها مصبوبتان كأنها ليست في السابعة عشرة من نمو لحمها. عيناها تطفحان شقاوةً ودعوةً للخطر. تخيَّلَ زوجته تلك الفتاة، أثناء اللقاء، نائمًا عليها، منعجنًا بها، وخياله كليةً مع طالبة الثانوي ذات الصَّدر الكبير. شعر أنه عمل الواحد الصح بدَوِي فوسفورى معها. انبسطت الزوجة من السمك. انبسط هو من جيرانهم الجدد."

قال صديقه: "هو، ببساطةٍ يشتهيها، حتى لو من خلال تلك الألعاب الأخلاقية التي تجعل من الخيانة مصدرَ سعادةٍ لجميع الأطراف". ردَّ: "ليس الأمر كذلك؛ فبعد يومين، وبمحض صدفةٍ سينمائية، اكتشف أن زوجته الشَّابَّة تخونه، وفي لحظة أن مسكها متلبسةً بفعل الخيانة، كان الوضع بالنسبة له غريبًا جدًّا .. زوجته تخونه، هذا مفهوم، وإن لم يكن سهلًا تقبله؛ لكن ما ألجمه، ما أوقف اندفاعه الإنتقامي ببساطة وجعله خارج المتعارف عليه، أنه وجد امرأة أخرى على الفراش .. نعم .. طالبة الثانوي الصاروخ .. التي كانت زوجته تغار منها، وتتعارك معه، وتسوِّد ليلته، إذا وجدته ينظر إليها، أو مسكته يتلصص عليها، وهو يداعب بنطاله. صائدة الأزواج، وصيد العزاب، ومخربة البيوت، في فراشه الشخصي، وليست معه! بل مع زوجته التي كانت تتبعثر في نشوة مجنونة، بكلمات عشق لم تقلها له حتى في بداية زواجهما، في حالة تفكُّكٍ كاملٍ، وولعٍ محموم". قال صديقُه مره أخرى: "إذا قارنَّا هذا بذاك، فسوف تجد أن فكرة الخيانة ذكورية تمامًا .. تخصيص الحب، وتوجيهه إلى هدفٍ واحدٍ دون غيره، هي مِنَ اصطناع الذكر السَّاعي لمركزيَّةٍ وواحديَّةٍ ليست

مشروطة في تلك الحالة الإنسانية". لم يعرف كيف يرد، فأكمل وسأله: "وماذا فعل الزوج الشاب لزوجته حين رآها نائمةً مع بنت الجيران؟". رد وهو ينظر في عينَي صديقه: "قال لها: *لم أعرف أنك ليسبو*".

٣

فتح بابَ الحمَّام، وهو يشد حبلَ الروب على جسده. توقَّفَ متفاجئًا أمام امرأةٍ غريبةٍ، قابلها أمسِ بعد أن رأى صورها الأسبوع الماضي وأعجبته على الفيسبوك. توسَّطَتْ صديقتُهما المشتركة للمقابلة والتعارف. كانت طويلة محتشمة الملبس حينها. لم يضايقه أنها طويلة؛ فهو أيضًا طويل، ويقدر أن يتخطاها بسهولة؛ لكنه لم يعجب بحشمتها وتحفظها الزائدين رغم وضوح أناقتها المبذولة. شخصيتها خجلة .. ضايقه هذا أيضًا. الآن هي في غرفته بقميص نوم أسود قصير، ومكياج كامل، تنتظر على الكرسيِّ، مرسومًا على عينيها المفاجأة والدهشة المتسعتان. تسمَّر الاثنان كطفلين دخلَا عمارةً خاطئة، وَكلٌّ واحد ظنَّ أن هذا بيتُه، ووجد الآخر الغريب بجانبه يهم بدق الجرس. وضعتْ ذراعيها حول ثدييها الكبيرين تخفيهما من تحت قميص نومها الشَّفَّاف، وضمَّتْ رجليها، واعتدلَتْ وهي مأخوذة وقد اصفرَّ لونُها. يتذكر بطريقةٍ غائمةٍ أنه قبل أن يدخل الحمام أكَّد عليها

إذا كان هو نهاية الأسبوع الثاني من التبويض، حيث خمسة أيام الخصوبة والاحتمال الأعلى للحمل، وهي تتذكر في غبشٍ أنها تعرف أنها ستستلقي على ظهرها اليوم فاتحةً رجليها في الهواء بأقصى استطاعتِها لكي يصلَ السَّائلُ المنويُّ بسهولةٍ، وبأكبر قدرٍ، إلى رحمها، وتستوعب في دهشة، في ذات الوقت، أنها تضحك أثناء المداعبة الأولية، وتقهقه بصوتٍ عالٍ رقيع، وتستمر بنبرات مختلفة طوال عملية الاتصال. متى؟ كيف؟ أين هما؟ شعور بالغرابة أكثر من أي شيءٍ آخر تملكهما، ثم الفزع .. من المفترض الآن أن يتعامل مع شخص غريبٍ كليًّا عليه (لم ير سوى صورها، وحدَّثَها مدة نصف ساعة متقطعة أغلبها ردود قصيرة) بطريقة مألوفة بصفتها زوجته. أراد أن يصرخ بأعلى حسه "**من أنتِ؟**" لكنه شعر بسخافة ذلك. ليس لأنه أكد عليها منذ قليل أنه الأسبوع الثالث من دورتها الشهرية، بل لأنه يعرف من هي. سعاد صديقة ياسمين صديقته التي لم يرها سوى مرة واحدة، بعدما رأى صورها على الفيسبوك. تظاهر الاثنان بعدم تنبههما لهذا الوضع الغريب، إلَّا أنها ابتعدت وهي مسمرة نظرها عليه، وجلست على طرف السرير البعيد، وهي ماتزال

تحيط ثدييها بذراعيها، وتضم رجلين حليقتين تخرجان بشوط طويل من قميص النوم القصير. لم يتحركْ من مكانه. وجاله خاطر غريب. ماذا لو أنَّ شخصيتَها سيئة؟ ماذا لو كانت هذه الشابة غير مناسبة له؟ فهي أكبر منه بأربع سنوات في نهاية الأمر، وهو طلب رؤيتَها على سبيل الخبرة والمعرفة ليس إلَّا. شَعَرَ بدوار فتهالك على المقعد المقابل للسرير معطيًا ظهرَه لها. أمَّا هي، فكانت تبكي، وتلطم في داخلها، ينتابها ذلك الخوف الفطري للعذراء عند اختلائها برجل غريب؛ لكن من أدراها أنها عذراء الآن؟ أفزعها ذلك الخاطر أكثر، وأرادت أن تضع يدها وتمررها، حتى تتأكد من أنها عذراء؛ لكن من الطبيعي ألَّا تبقى عذراء! بل من غير الطبيعى أن لا تزال عذراء! خرجَتْ من عينها دمعةٌ ظهرت بوضوح بسبب المكياج، واختلط الأسود مع المِلح الذائب، وسقط على خدها. مَنْ هذا الشاب الغريب الذي يجلس في وسط غرفة غريبة معطيًا ظهره لي بروب أحمر؟! أمسِ قابلتُه .. شاب معجب بنفسه كثير الضحك. يقال عنه إنه شاعر. أُعجِبَتْ بهذا الجو كلِّه إلَّا أنها فهمت أنه غير مناسب لها، ولا ينفع أن يكون زوجًا مُرشَّحًا؛ فهي تريد رجلًا ناضجًا

رزينًا، يعمل في شركةٍ كبيرةٍ أو صاحب عمل خاص، كما لم تعجبها وقاحته في النظر إليها مباشرة طوال الوقت كأنه يعرِّيها بعينيه. مرَّتْ حينئذٍ مَشَاهِدُ أمام شاشة عقلها كفيلم سينما، تتلاحق في سرعة. خِطبة .. لقاءات .. نيل وعصير .. يمسك أجزاء جسدها داخل السيارة .. يقبِّلها في ممر الصالة وهي تمسك الصينية بأكواب فارغة .. خناق .. تصالح على الموبايل .. الفرح .. معازيم .. الشربات والزغاريد .. لحظة الاختلاء في الفندق .. الصباحيَّة .. الفُسَح في شهر العسل .. محاولات الحمل المتكررة والذهاب إلى الطبيب .. عام كامل مر منذ لقائهما البارحة، وهما الآن في نهاية الأسبوع الثاني من دورتها الشهرية الثانية عشر معًا. أحست أن كلًّا منهما مكبل في الآخر بغير إرادته أو اختياره. تطلَّعَتْ في لحظةٍ واحدةٍ إلى صورةٍ داخل برواز فضي موضوعةٍ بجانب التلفاز، وكلٌّ منهما يلف ذراعه حول الآخر، ويلصقان خديهما ببعض، وينظران إلى الكاميرا وهما يبتسمان. دفعت هذه الصورة بعض الطُّمَأنينة في نفسها.

٤

تجلس ممددة على شازلونج الطبيب في العيادة .. تنظر إلى السقف في هدوء .. تتملك عينيها سرحةُ التوهان. نعرف عنها أنها واحدة من الأربعين اللابسات الأبيض في فيديو أغنية "قولي أحبك" لكاظم الساهر. هي مريضة الآن. مصابة باكتئابٍ جسيم. قالت للطبيب: إن هذا أقصى إنجاز فعلته في حياتي. ردَّدَ الطبيب في آلية: في العصر الحديث لا توجد إنجازات كبيرة .. كل واحد فينا يحقق ذاته في الأشياء الصغيرة المكوِّنة لحياته. ما ترينه أنتِ (لا شيء)، هو بالنسبة للآخرين إنجازٌ كبيرٌ. كم واحدة تمنت أن ترى كاظم الساهر عن قرب، أن ترقص معه، بل وتظهر بجانبه على الشاشة؟ كم واحدة حلمت أن تكون بطلة فيديو كليب؟ همستْ في صوت منخفض أن حياتها بلا معنى، وأنها لا ترى في كاظم هذا العمود الشامخ المتحدي للزمن، أو ناقذ الأحلام ومحققها، وأنها لم تكن مُلاحَظة وسط التسع والثلاثين شابة. كتب لها أدوية مضادة للاكتئاب، ولم ينس أن

يمنعها من التفرج على الأغنية أو سماعها. نصحها أن تخرج للحياة العمليَّة، وتنشِّط حالتها الاجتماعيَّة. حاولَتْ في الأيام التالية، ورفضت باستمرار تلك الأصواتِ المؤلمةَ التي تقتلها .. حاربتها بكل الوسائل. نعرف أنها لم تقل للطبيب في جلستها الأولى أنها كانت تعبد "كاظم جبار إبراهيم السامرائي" – مواليد بلدة الموصل، برج العذراء، المولود في يوم ١٩٥٨/٩/١٢، المطلَّق منذ عام١٩٩٦، وله ولدان: وسام وعمر، وسبعة إخوة: عباس وحسن وحسين وعلي ومحمد وسالم وإبراهيم، وأختان: أميرة وفاطمة، ويحب ركوب الخيل وكرة القدم والرسم والنحت والموسيقى – وأن جدران غرفتها تختفي وراء صورِه وبوستراتِه الضخمةِ مختلفةِ الأحجام والأشكال التي تمثل مختلف مراحله الفنيَّة – كم حلمت على أغانيه! – ولا قالت له أنها شهقت وأغمي عليها عندما علمت أنهم وافقوا على أن تمثل معه الأغنية، وكم كانت صدمتها عندما رأت كل هؤلاء الفتيات .. هي التي أفنت حياتَها عشقًا في محرابه، وكفَّت عن الجميع. تدافعت كل هذه الخواطر في رأسها قبل أن تتجه – في منزلها – منهزمةً – في نهاية الأمر– لتُخرج الـ (سي دى)، وتضعه في الجهاز. توقِف

اللقطات التي تظهر فيها وسط الكادر الواسع، وهي تلف حول نفسها راقصة بفستانها الأبيض المثير، وسط تسعٍ وثلاثين فتاةً، وفرقةٍ من العازفين .. وكاظم الساهر.

٥

نحن الآن في الطائرة. راجعان إلى وطننا بعد تسعة وعشرين عامًا ونصف في الغربة. معي (رباب)، حيث كنا في تلك الدولة الأوروبية الشرقية الصغيرة نعيش كزوجين. أقول زوجين، وأنا أنظر إليها، ثم أنظر من الشباك حيث أرى السُّحُب. (رباب) ليست زوجتي في الحقيقة، بل، تحريًا للحقيقة والدقة، هي زميلتي في العمل. العمل الذي استغرق كلَّ هذه الفترة من الأعوام؛ فنحن جاسوسان زُرعنا في ذلك البلد الشرق-أوروبي الرمادي، بتكليفٍ من المخابرات العامَّة. مُنحنا هُويتين جديدتين كزوجين تزوَّجا حديثًا، ويهاجران إلى ذلك البلد الشيوعي. كانت أول مرة أقابل (رباب) – لا أعرف حقًا إن كان اسمها "رباب"– في المطار قبل أخذِنا الطائرةَ المتجهةَ إلى هناك. (رباب) بجانبي الآن نائمة تغطِّي نصفَ جسدِها المائل على الكرسي الممدود بغطاءٍ خفيفٍ أعطَوْنا إياه. "رباب سمير" خريجة كلية الحقوق، والحاصلة على ماجيستير في القانون بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف. لها معدَّل

ذكـاء، حـين تم إخضـاعها لاختبـارات الـذكاء المنتشـرة في السبعينيات، يتجاوز مائة وخمسًا وثلاثين نقطة. وأنا (حسين إبراهيم) – أو "منير مجاهد" ، الاسم الذي يتلاشى من ذاكرتي– خريج كلية الشرطة والأول على دفعتي مع امتلاك العديد من اللغات الشرقية والأوروبية فضلًا عن لغة البلد الذي ذهبنا إليه. خرجَتْ هُويَّة (حسين إبراهيم) و(رباب سمير) كعالمين في الهندسة النووية، بعد إخضاعِنا لكورس علمي تلقيني مكثَّف جدًّا وشاق لمدة ستة أشهر في دراسة أولويَّات وأساسيَّات هذا المجال الحَيَوي والصعب. عشنا معًا كزوجين في غربةٍ صعبةٍ مشترَكَيْن في سرِّنا الكبير. الغريب أني أتذكر أنني تصرفتُ كزوجٍ طبيعي. أخفيتُ عنها عَلاقاتِي النِّسائية الأخرى، وكنتُ حريصًا على ذلك. وأخفيتُ تقاريري عنها للجهاز – في النهاية بالتأكيد هي تفعل بالمثل معي–، وخفتُ عليها في مرضها، وصرتُ أحفظ ما تحب وما تكره وما تخاف منه، بل وتعاركنا مراتٍ عديدةً كزوجين حقيقيين! الآن نحن عائدان .. أشعر بارتباكها الدَّفين الذي أشعر به أنا أيضًا. هل سننزل من الطائرة، ويتجه كل واحد إلى بيته، أو بيت عائلته، بعد أن يسلم على الآخر كأنه نهاية يوم

عمـل، أم سـنبقى كـزوجين مخلصـين معًـا؟ ليـت (ربـاب) النائمـة بجانبي تجاوبني.

٦

مغنية تحبُّ أصم وأبكم. كلُّ أمنيته في الحياة أن يسمع صوتها الذي يسمعه الجمهور ويصفق. دخلَا يومًا إلى الكافيه. جلس قبالتها. بدأ الكلام، وهو يحرك يديه، ويحاول شرح شيءٍ ما بأسى. دمعت عيناه. حزنه، كما فهمت المغنية المشهورة، يكمن في أنه معزولٌ عن العالم الخارجي، لا يعيش فيه. ما يؤلمه في ذلك، أنها جزءٌ من ذلك العالم، أو العكس، أن العالم الخارجي جزءٌ منها هي. جزءٌ فيه تخلخل لجزيئات الهواء مع موجات الصوت الطوليّة وخبطها بعظمة الأذن، التي تهتز بدورها في حساسيةٍ تماثليَّةٍ لأدنى تغيُّر .. هذا الجزء الذي ينقل سحرها كله في الأثير إلى الداخل. بداخله، كان مستغربًا لأنه يشعر أنه يعيش حين يتشكى من عدم عيشه، وهو يجلس إليها في الكافيه ويدمع. خرج منه صوتُ صياحٍ حلقي، وفتح ذراعيه على امتدادِهما كطائر النورس، ففي هذه اللحظة، وبسبب حلمه الليلة الماضية، حيث كان يتكلم ويسمع بأفضل حال، سمع صوتها

الفردوسي الذي يجعل الناس تصرخ وتخرج عن شعورها، معبرين عن نشوتهم بتصفيقٍ ملتهبٍ، وصيحاتٍ ملتاعةٍ .. استطاع أخيرًا أن يرى جوهرَها، جوهرها الذي ليس هو صوتها المتفرد الملائكي، موهبتها الفريدة، بل مفارقتها الرهيبة أن تحبَّ أحدًا مع هذا أصم وأبكم.

٧

كان يعرف أنَّ تضامنهما معًا هو ما يضمن استمرارَ حياتيهما، وأنَّ عجزَ أيِّ أحدٍ منهما يعني موتَ الآخر. تضامنهما في الأكل والشرب والذهاب إلى الحمام. في حياتهما الماضية تزوج الصديقان، وأنشآ أسرتين كبيرتين. كبر الولدان، وتخرجا، وسافرا إلى الخارج، وماتت شريكتاهما. حياة حافلة مديدة. سقط واحدٌ منهما مريضًا، وبدأت زياراتُ الأقارب، القريبين منهم والبعيدين، كرؤية وداع قبل أن يموت. عندما زاره قريبٌ بعيدٌ له، في الخمسين من عمره، نزل إلى القاهرة خصيصًا من قريته النائية بالصعيد .. تعرَّف عليه العجوز الآخر المقطوع من شجرة إلَّا من أولاده الذين هاجروا. تعرَّف عليه فورًا رغم ذاكرته العجوز. مات هذا القريب البعيد بعدها بيومين، وجاء الخبر للصديقين العجوزين. لا يبالغ حين يقال إن العجوز — المقطوع من شجرة إلَّا من أولاده – تأثَّر أكثر من العجوز القريب للمتوفَّى. كان متغيرًا منذ زيارته تلك، وازداد اضطرابه. ينظر

لصديق عمره ورفيق منزله الأخير بنظرةٍ غريبةٍ كأنها أول مرة يراه فيها. نظرة قلقة، ملتاعة، مدهوشة. نظرة غيَّرَتْ كيانه كله لشخص لا يعرفه. نظرة جعلته شخصًا غريبًا من أرض غريبة. قُبَيل موته بدقائق، قام العجوزُ القاتِلُ بحوار هامس في أذن صديقه القتيل، على فراش موته، قائلًا، فيما يبدو، أنه دس له سُمَّ فئران في الدواء، مقدِّمًا تفسيره أنه مضطرٌّ لذلك بسببِ قسمٍ أقسمه في العشرين من عمره، بأن يأخذ ثأر أبيه، وأنه هو، صديق عمره، الوحيد القادر على أن يجعله يبر قسمه لروح أبيه، بقتله بيديه قُبَيل موته بدقائق، معتذرًا ومتمنيًا الصفح.

٨

لم تكن كالأخريات. كانت صارمةً عمليَّةً محترفةً مختصرةً الهدف. بعد خمس وأربعين دقيقة تمامًا تكون قد أنهت مهمتها. تفتح باب الغرفة المغلق قبل أن تعلن الساعة انتهاءَ الدقيقة الخامسة والأربعين منذ بداية اللقاء.

في يوم، حاولتُ أن أتواصل خارج الفعل الأساسي. كانت حادَّةً معى، وهي تلبس قميصها الأبيض ذا الأزرار الفضيَّة الضاغطة، تاركة آخر زرين ليظهر صدرُها الصغيرُ منه. تتكلم، وهى متَّجهةٌ ناحية الباب غيرَ منتبهةٍ لما أقوله لها "مش كده؟" ... "آه آه، ممكن" ..

لم تكن من الطراز الذي أفضله، أي لم تكن مكتنزة مليئة فيَّاضة، بل جسدها رفيع مشدود – قالت لي أنها لعبت رياضة الجمباز في صغرها- تدب برجليها على الأرض في ثقةٍ كأنها حصان أو في مقارعة. بالإمكان، بعد أن تتزين، أن يقال إنها

جميلة. في السادسة والعشرين من عمرها .. أكبر مني، وذات خبرة. عَرَفْتُها بالصدفة عن طريق صديق لي بالعمل في ذلك البرج السكني المشهور. يوم الخميس السَّاعة السَّادسة مساءً، حين أكون قد أنهيتُ عملي بوسط البلد وأكون راجعًا لبلدتي حاملًا شنطة سفري الصغيرة. إجازة العمل الجمعة والسبت، وأحيانًا تمتد للأحد. بعد عدة مرات، نما عندي شعورٌ بالألفة رغم جفافها الواضح خارج إطار "العمل". هى تجربتي الأولى. كانت ترشدنى، وتعطي التعليمات، ممَّا يسبب لي التوتر والارتباك، خصوصًا أنها تتفوهها في آليَّةٍ آمرةٍ رتيبةٍ، رغم أنفاسها المتقطعة شهوةٍ، أو متعةٍ، أو انغماسٍ، أو حتى لاجتهاد الإتقان، مما يعطينى شعور بالدونية وقلة الحيلة أمام جبروت خبرتها وبرودها. تتعرَّى بسرعة أمامي .. أحيانًا كان قضيبي يرتخي بسبب الدواء المضاد للاكتئاب الذي آخذه، فتهمس بإغواء في أذني، وتتلوَّى وهي تداعبه، مما يجعله يقف معانداً خيبته، مستجيبًا لها.

يقف بدايةً من صباح الأربعاء في استشعارٍ ورغبةٍ، وأنا أمنِّي نفسي بما سيحدث غدًا. يوم الخميس أحاول أن أؤجل التفكير في الموعد كما لو أنني أترك كعكة جانبًا حتى يجيءَ ميعاد الحفل لأفتح العلبة. يدغدغني هذا الشعور، وتسري في جسدي حُمى خفيفة. أحيانًا ما تكون ليلة الخميس مليئة بأحلام جنسية عن النساء اللاتي أراهن في يومي، فأقذف وأنا نائمٌ، فأغتم عندما أصحو على إضاعةِ فرصةِ شهوةٍ كاملةٍ محفوظةٍ منذ أسبوع.

منتظرًا لحلوى الأسبوع، متلظيًا لتخلع ثيابها، فأرتمي عليها في الفراش الوثير المعَدِّ خصيصًا لمثل هذا العمل، بستائره نصف الشفافة التي تضفي على الجو إحساسًا بالإيروتيكية الغامضة. أصبح يوم الخميس هو واسطة عقد الأسبوع وقمته. تدور أيامُ الأسبوع كلها حوله في زحفٍ مزدحمٍ وبطيءٍ نحو المتعة المشتهاة. يوم الخميس، أجهِّز نفسي كعريس .. في الصباح، أتحمم جيدًا بمستحضرات تنظيف وترطيب الجسد، وأحلق شعري الزائد من أجزاء جسدي، وأضع مزيل العرق في كلِّ الأمكنة، ثم أضع الزجاجة بالكرة الشفافة الدوَّارة داخل شنطة سفري التي آخذها في ذهابي إلى العمل يوم الخميس من كلِّ أسبوع.

أحببتها. نعم. شعرتُ بالألفة والحب بيننا. ثلاثة أشهر معًا. أقسم أني أعرفها، وأعرف أدقَّ تفاصيل رُوحِها، شعرتُ بنقاوة قلبها وانجذابها إليَّ. هذا الخميس جئتها باكرًا عن الميعاد المعتاد، بثيابي التي ألبسها في المناسبات، ومعي باقة زهور. طرقتُ حدوة الحصان على الباب مرتين، وانتظرت. فتحَتْ فدلفتُ للداخل. بدَتْ مستغربة من مظهري المنمَّق، لكن يبدو أنها عَزَتْ ذلك إلى أني كنت في مقابلةِ عملٍ هامَّةٍ قبل أن آتي إليها. كانت تدخِّن سجائرها، وقد رأت الزهورَ في يدي. كانت سعيدة ووجهها يشع. قالت لي "أنا سعيدة اليوم، وسنفعل شيئًا مختلفًا". وأدخلتني الغرفة سريعًا، ثم خلعَتْ بنطالي بنفسها، وجعلتني أستندُ بركبتيَّ على حافة الفراش. بدأت هي بخلع ثيابها مع بعض التلوي من جسدِها المشدودِ الأبيض. استثارني بشدة أننا سنفعل شيئًا جديدًا، كانت بهجة انتظار المفاجأة تحمِّسني أكثر، وتضخ اللهب في عروقي .. تمدَّدْتُ على بطني بعرض الفراش، وعند حركةِ التفاتي، قالت لي أن أبقى على وضعي. أمسكتْ بقضيبي من تحت بطني، تداعب خُصيتيَّ في حرفيَّةٍ بيدها الأخرى، وبتوقيتٍ يبدو أنها كانت تعرفه مسبقًا، وتدرَّبَتْ عليه كثيرًا، بعدها وضعتْ إصبعَ يدها اليسرى في استي. تأوَّهْتُ بصوتٍ عالٍ

للمفاجـأة، وعنـد حـركتي لأنـتفض، اكتشـفتُ أني مقيَّـدٌ مـن معصميَّ وقدميَّ في أعمدة السرير المزخرفة بالإيروتيكية القوطيَّة! رأيتُها تلبس أمامي قضيبًا مطاطيًّا مهولَ الحجم. لفَّت حولي به مستعرضةً قضيبَها الجديد، ثم اقتربَتْ مني، وألصقَتْ فَخِذيها فيَّ، وأدخلته ببطءٍ وحنانٍ .. أحسُّ به محاولًا ضمَّ أليتيَّ بأقصى ما أستطيع، ومترجِّيها كي لا تفعل. لم تستمع إليَّ، وشرعتْ تدخله أعمق وأسرع وأعنف، مصدرة صوتًا مستثارًا مهتاجًا ملتاثًا من فمِها. انقبضتْ أنفاسي، وأصبتُ بنوبةِ هلع. مالَتْ لتهمسَ في أذني بأني ولدٌ مُطيعٌ وشطُّور. أذني تطن من ألم مرعب يمزق أحشائي. لم تتوقَّفْ. قلبي يكاد يتوقَّف. تضع يديها على فمي كي لا يخرج صراخي واضحًا، لكن كافيًا لكي تسمعه. توقفتْ فجأة، وأخرجَتْه بعنفٍ. صائحةً "آآآآآآ" مثل صياح من ينتهي من عرض خدعة سحرية في سيرك. ضحكتْ ضحكةً مجنونةً متقطعةً، وقفزتْ من فوقي لتجلب باقةَ الزهور، ومزَّعتها فوق رأسي على الفراش، الذي اختلط بمخاطي ودموعي وبولي.

لم أرَها مرَّةً أخرى. أو هكذا تمنيت.

٩

توقفتْ مقطورةُ إصلاح كهرباء الشارع وأعمدة النور فجأةً في وسط الشارع الطويل الضيق. تصدمها سيارة من الخلف، ويُسمع صوتُ التحطُّم العنيف لجزئها الأمامي من فوانيس الإنارة، وممتص الصدمات، وغطاء الموتور.

ترى في المرآة الجانبية ابتسامةَ سائقِ المقطورة الواسعة، وحركةَ يديه الحماسية التي تشير إلى إحراز هدف، والضحكة القصيرة الصادرة من الجالس بجواره. ينزل السائق وزميله، وتتغير ملامحهم في لحظةٍ واحدةٍ إلى ملامِحَ غاضبةٍ وصارمةٍ. يلبس السائق – القصير نوعًا ما العريض المنكبين– على رأسه كابًا حمراء قذرة، بها الكثير من التمزقات والبقع، وزميله يرتدي الكاب نفسها من نفس النوع والقذارة والتمزق، لكن لونها أزرق. بدأ السائق الصياح بعد أن جرى لمؤخرة المقطورة ومدَّ عنقه ونظر،

بطريقةٍ مسرحيَّةٍ، إلى الآثار الحادثة نتيجة الارتطام. **ليلة أمك مش فايتة! إيه اللي عملته دا! دي عهدة!**

كنوع من الهواية، زميله وهو، يفتعلان الحوادث، ويُكثران من الشتيمة والخناق. الفرح بالعراك، وتدوير الوجه المفاجئ، هو ما يجعل الأمر أكثر متعةً بالنسبة لهما.

بَقِيَ سائقُ السيارة الخلفية في مكانه، يبدو عليه التردُّدُ في فتح الشباك. من هيئته ونوع سيارته غالية الثمن يبدو أنه من طبقة راقية. يرتدي العُوَينات، وبدلةً كاملة مربوطة العنق. اقترب سائقُ المقطورة وصديقه ناحية الزجاج في خطواتٍ واثقةٍ تعرف ماذا تفعل، وتفعله مرارًا. دقَّ على الزجاج المغلق البارد بسبب التكييف، فأخفض الرجلُ الزجاجَ بطيئًا، ونظر له محاولًا ألَّا يبدو خائفًا.

دون أدنى سبب، وقبل أن يفتح سائق المقطورة فمه ليصيح ويمارس هوايته المفضلة، جحظتْ عينا الرجل الجالس داخل السيارة، وتغيرت ملامحه كلها في ذهول وشحوب.

- مدحت!
- نعم؟!
- مدحت .. مدحت شوقي!
- لا .. اسمي مش مدحت يا بيه ..

ثم غيَّر نبرته بعدما تذكر ما توقف من أجله:

- إنت دمرتلي الجزء الورَّاني كله، والمقطورة دية عهدة عليَّا .. دي سواقة بني آدمين يا عالم يا رمم .. كل واحد يركب ملَّاكي فاكر انّ الشارع بتاعه ..
- مدحت، مش فاكرني؟
- اسمي عماد إبراهيم، وانا مش عارفك .. وأول مرة أشوفك فيها.
- مش فاكر آلاء مراتك وولادك؟ مش فاكرني أنا صاحبك خمستاشر سنة؟ مش فاكر الجامعة اللي دَرَسْت ودَرِّست فيها الفلسفة ولا الطلبة ولا كتابك

"الذكريات والهُوِيَّة"؟ مش فاكر أي حاجة من دا كله؟!
إحنا افتكرنا كلنا إنك مُتّ!

بدا ضَيْقٌ شديدٌ على السائق ذي الكاب الحمراء والبِنيَة العريضة والطول القصير نوعًا، وضاقت عيناه كأنه يحاول أن يتذكر عنوان أو اسم شخص غائب عن باله، ثم حسم أمره:

- اثبتلي.
- .....

مرت دقائق ثقيلة واطئة .. قال سائق المقطورة:

- يبقي انت راجل كداب!

وأدار ظهره، ومشى ناحية المقطورة، وصديقه مازال واقفًا ينقل بصره بينه وبين زميله الذي يعرفه من مدَّةٍ قصيرةٍ نوعًا ما كطول قامته.

١٠

قابلتُها في الجامعة – أنا متأخرٌ عامين، وأشعر أني عجوز بالنسبة لبقية الطلبة – شابة "في مقتبل العمر. "*أنا أصغر أصدقائي*" .. تقولها في اعتداد، فخورة بنفسها. ذكرتْ لي مجموعَها اللامِعَ في الثانوية، بطريقةٍ تُوحِي بأنها تقوله كثيرًا للآخرين. سذاجتها العمرية أبهجتني، وجعلتني أشعر كم أنا مُثقل. جسدُها شابٌّ، صحِّيٌّ، له منحنياتُه، حتى قُبَّة بطنها الصغيرة مثيرة وشهوانيَّة، وتُبرزُ بطريقةٍ إيحائيَّةٍ عُضوَها الصَّغيرَ البِكرَ تحت بنطالها الذي تترك زرَّه معلقًا بدبوسٍ خيالي. كتبتْ اسمَها في ورقة الحضور بصيغته الخماسيَّة: **منال شكرى راغب أسكاروس ألفت** . هزَّني أنَّ لها نفسَ الاسم. هي ذكرت لي اسمها الأسبوع السابق، لكني كعادتي لا أنتبه إلى الأسماء ولا أحفظها في ذاكرتي، خصوصًا لمن أشعر أن لن يكون لي معهم تعاملٌ في المستقبل. تداعَتْ هذه المصادفة إلى عَقدِ مقارنةٍ بينها وبين منال، صديقتي التي تكبرني بعامين. شعرتُ كم هي – منال

صديقتي – كبيرة في السن. المقارنة التي عُقِدَتْ في رأسي أثناء الدرس، بينها وبين منال شكري راغب أسكاروس ألفت، في سنتها الجامعية الثانية (وتصغر دفعتها بعام)، أظهرَتْ جليًّا صفاتِها الشخصيةَ، مما جعلني أشعر بالحزن والتيه. لأيِّ فريقٍ أنتمي؟ التعقيد والتركيب. الاحتياج إلى إصلاح، الشغف بالفن، الهموم الفكرية، الخروج عن إقرار الجماعة والمألوف، مرارة التجربة والعَلاقات، العَلاقة المتناقِضة بالجسد، أم من الناحية الأخرى للتي تجلس بجانبي، المرح الفخور بالذات في انطلاق سطحي مبهج، السَّيْر بالجسد دون اهتمام، كتابة الاسم بطريقة خماسية في صلةٍ غير منقطعة بعد بالطفولة، الألوان الفاتحة، الابتسامة الخفيفة على الوجه، الكلام دون حذر؟

الإبداع والثقل، أم التقافز بالحذاء الرياضي دون أن يبدو على الشفتين أو الوجه شرب السجائر؟ شعرتُ أني معلقٌ في المنتصف، وآلمني كم أن الزمن قاسٍ فيما يفعله بنا، رغم وعيي بهذا منذ صغري. المقارنة جعلتني أيضًا أدرك أن كل من أحببتهن تبدأ أسماؤهن بحرف "الميم" مثلي!

عند انتهاء الدرس، ونحن نخرج من الغرفة بالدور الثالث، لاحظتُ أن لديها شعرةً بيضاء! أشرتُ لها مازحًا. أزاحت شعرَها لتريَني خصلاتٍ عديدةً أخرى .. *الواحد عجّز من الجامعة دي. "أنا أصغر واحدة فيكو وشعرى ابيضّ أول واحدة"، بقول لأصحابى.*

السؤال الذي طُرح أمام عيني، ونحن نازلون على السلم الجامعي من الدور الثالث .. إذا كنت أحب منال (صاحبتي)، لماذا إذن تمنيتُ في سري أن تعجب بي منال شكري راغب أسكاروس ألفت؟

١١

الحبُّ هو أن تمشي أمام سفارة إسرائيل المشتعلة عاريًا. شيء لا معنى له وسط محاولات حقيقية للنجاة. هكذا فكرتُ وأنا أجري – فور إغلاقي الاتصال مع صديقٍ لم أكلِّمْه منذ ثلاث سنوات، قبل أن تنتهي الدقيقة الأولي– حين رأيتُ أمارات الهلع والرعب في الكتلة البشرية المنقَّطة التي تجري نحوي فزعة كنعاج هائجة رفيعة في ميدان التحرير، استدعى ذهني فورًا اليومَ الذي لم أجرِ فيه، وأقسمتُ بعده أن أجري فور اندلاع الخطر مثل الباقين. كنتُ بدأتُ ممارسة رياضة الجري منذ فترة، لكنَّ أنفاسي انقطعتْ سريعًا. توقَّف الناس حولي. نظرتُ خلفي لأجدَ المجموعة التي أقف معها ساكنةً تنظر لبعضها في حيرة، بعد أن اتضح أن الأمر خُدعة أو إشاعة. كانت مصدومة، وتهدئها بنتٌ أخرى .. مزحتُ حتي ألطِّفَ الجوَّ وأهدئها. هي لا تستطيع أن تجري. بسبب شعوري الصاعد بالذنب لأني تركتها وجريتُ، كنتُ أقنع نفسي طوال المسير أن على المفتقدين جميعًا إلى سَنَدٍ،

ألَّا يلوموا بعضهم، وأن مجموع الجزر المنفصلة لا يكوِّن أرخبيلًا، بل مجموعة من الجزر المنفصلة.

المحتويات

الإهداء ٣

قصة قصيرة ٥

أفكار داخل رأس تلميذ ١٧

شمس ٣٣

القط (عن قبلة) ٤٥

الورد اللي فتح ٥٧

كله بإذنه ٧٣

ألفة أكثر غربة ١٠٧

الأعمال الكامله

t.me/kotbhm